الدين ليس الحل

بحث في نشأة وصيرورة الأديان الأبراهيمية الثلاثة ودورها في تخلف العقل والحضارة والأنسان

The Solution is not in Religion

Readings in the Historic Regression Caused by Monotheist Religions

د. لبيب سلطان

نبذة عن المؤلف

- ولد الدكتور لبيب سلطان في مدينة بغداد عام 1952
- دكتوراه في فلسفة العلوم وفي الهندسة الكهربائية عمل في جامعات كندا ثم في جامعة سان دياكو ، ولاية كاليفورنيا- الولايات المتحدة وله بحوث علمية عديدة .
- ناشط في مجال الحقوق المدنية وترأس عدة جمعيات للدفاع عن الحقوق المدنية والدفاع عن الشعب العراقي.
- ساهم في نشاطات جمعيات السلام والدفاع عن حقوق الأنسان والبيئة في كندا والولايات المتحدة.

أهداء

الى كل من ساهم بخلق القيم الأنسانية العليا والتأخي بين الناس وسيادة العقل والمعرفة والتسامح والتعايش والأغناء المتبادل بين البشروالحضارات

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف ولايجوز النقل أو ألأستنساخ أو الترجمة أوأي خرق لحقوق الطبع وحماية المطبوعات الأ
بعد الحصول على موافقة المؤلف من خلال المراسلة على عنوانه البريدي labib@solaropia.com

الفهرس

المقدمة 4

. الباب الأول: قراءة عامة لتاريخ وصيرورة الأديان الأبراهيمية الثلاثة 5

1. خصوصية نشأة الديانات الأبراهيمية 6
2. قراءة لمسيرة الديانات الأبراهيمية وخطرها على المجتمعات الأنسانية 7
3. خطر مصادرة العقل وحرية الفكر والعلم بأسم محاربة الهرطقة 8
4. قراءة في أمكانية عقلنة الأديان الأبراهيمية من خلال روحنتها وتخليصها من الشرائع 8
5. قراءة لتاريخ وحاضر ومستقبل الديانات الأبراهيمية 9
6. مستقبل التدين والديانات الأبراهيمية 9
7. المنهج العقلي وأدوات التحليل لدراسة الديانات الأبراهيمية 11

الباب الثاني: ظهور التوحيد الأول وتكون اليهودية 12

1. ولادة التوحيد الابراهيمي في بلاد الرافدين 13
2. قراءة للتوحيد اليهودي في مصربقيادة النبي موسى 17
3. قراءة للسيرة التوحيدية اليهودية في مرحلتها الثالثة –سفر الملوك 22
4. أستخدام الاساطير الرافدية في تدوين التوراة–الخليقة والطوفان -وتكرارها في القران 23
5. قراءة في صفات الرب التوحيدي الأول قبل ظهور المسيحية 24
6. قراءة لحال الديانة اليهودية اليوم 25

الباب الثالث: التوحيد المسيحي ومعضلة تزاوج الروحانيات بالسلطة 32

1. قراءة في ظهور المسيحية 33
2. تجديد المسيح للفكر التوحيدي لم يصل حد الطلاق مع التوحيد اليهودي 34
3. زواج روما الأنتهازي بالمسيحية وتراجع أوربا الى النوم العميق لألف ومئتي عام 34
4. عصر النهضة و بدايات فصل الدين عن الدولة 37
5. قراءة تقيمية لتاريخ المسيحية وحالها اليوم 39

3. الباب الثالث: نشأة التوحيد الأسلامي وظروف ومراحل تطوره 55

1. قراءة عامة لنشاة وتاريخ الأسلام 56
2. قراءة لنشوء التوحيد في مكة 57
3. المرحلة المكية – دعوة سلمية وجادلهم بالتي هي أحسن 58
4. المرحلة المدنية - الأنتقال من الروحانيات الى تشريع الغزوات والسبي والقتال 59
5. الأسلام بعد فتح مكة – مهادنة أصحاب الثروة والنفوذ 62
6. ألأسلام يقيم امبراطورية الخراج بعد سقوط مدينة علي الفاضلة 63
7. قراءة لنشاة عصر التنوير الأسلامي بفضل الفلسفة الأغريقية 64
8. قراءة في حال الأسلام المعاصر 67

4. الباب الرابع: الروحانية الفردية بديل أقرب الى الله من التدين 89

1. الروحانية والتدين مفهومان مختلفان بل ومتناقضان 90
2. التصوف والروحانية في الأسلام 92
3. نمو الروحانية الجديدة في ألغرب العلماني 93
4. قراءة تقييمية للروحانية والتدين 94

5. الباب الخامس: العلمانية هي الحل 95

1. العلمانية منهج لتطوير المجتمع وبناء حضارة مزدهرة 96
2. قراءة في علاقة العلمانية و الليبرالية 97
3. قراءة في علمانية المجتمع والفرد 98

فهرس ألمراجع العربية والأجنبية 99

المقدمة

يهدف هذا الكتاب الى تعريف القارئ بالظروف الأجتماعية والسياسية والثقافية التي ادت لنشوء الأديان التوحيدية الثلاثة اليهودية والمسيحية والاسلام في منطقة واحدة، وهي الشرق الاوسط. ويستخدم منهجا تحليليا مبني على القراءة الموضوعية للظروف التي أحاطت بنشوء هذه الاديان. والكتاب ليس بحثا في تاريخ الأديان، بل يطور منهجا تحليليا في أهم عوامل نشئتها وممارساتها التي تناقض ما اتت به أومأدعته من روحانيات عند نشأتها. فعلى مدى التاريخ لعبت هذه الأديان ، ذات الجذور والفرضيات الواحدة ، دورا بارزا في أندلاع الحروب وأقامة الحواجز بين البشر والشعوب،وحتى الأفراد من شعب واحد، ناهيك عن تاريخها الطويل في محاربة العقل والعلم واقامة العوائق امام التقدم الحضاري والتفاعل الأنساني. والواقع أن العلم والمعرفة ساهمتا، ولازالت تساهم اليوم في عقلنة هذه الأديان وإزالة الخرافات عنها، أوعلى الأقل، بلورة الجوانب العقلية والروحية المفيدة فيها، وترشيحها من هذا الكم الهائل المتراكم لتراث هذه الاديان؛ وأكثره خرافي؛ بعضه مضاد للعقل، وبعضه مضاد للأنسان، بل وللحياة نفسها ، وهي اهم ثلاثة امور وهبها الله للأنسان .ويساهم العقل والعلم بايجاد بديل يساهم في اغناء الفرد روحانيا بعيدا عن التسلط والفرض باسم الله بما لايمت بصلة له . وقد شخصها المعتزلة بجرأة في منهجيتهم التي تقول «العقل من صنع الله ؛ والتقاليد الدينية من صنع البشر؛ فلنأخذ بالعقل فقط دون ماصنعه البشر » ، وبلاشك فالمعتزلة محقون . فإن التقاليد والفتاوى والتعاليم الدينية لهذه الأديان الثلاثة تحمل في طياتها خطرا كبيرا على الأنسانية والمجتمعات، ، كونها تصدر ممن يدعي انه انما يتكلم بأسم الله ووفق تعاليمه وبالتالي فهي ذات صبغة قدسية ألهية، في حين انها في الواقع إجتهاد شخصي متخلف، ابعد ما تكون عن الحكمة الألهية والروحانية الربانية الملهمة. والغرض من الكتاب هو التمهيد لفتح مناقشة عقلية، وبشكل موضوعي، للوصول الى عقلنة ممكنة لفهم هذه الأديان، والمساهمة باصلاحها من خلال استنباط ما هو مفيد فيها، وفرز ماهو ضار ومضر، وتخليصها من شريعة بني البشر ،فهي مايشكل خطرا جسيما على الأنسان والمجتمعات . والتاريخ ينبئنا ، أن بعض ممارسات هذه الأديان يتجاوز اي خطر اخر عرفته البشرية، فهي دون مبالغة كانت أهم عائق واجهت المجتمعات في بناء حضارة عقلانية مزدهرة تقوم على أحلال العقل والمعرفة ، توفر للأنسان حريته وتطور قابلياته وتحفظ له كرامته في أختيار وسائل العيش والأنتاج والفكر، بعيدا عن السوط الفكري والخوف الذي زرعته هذه الأديان بتصويرها الرب وكانه انتقامي ومتعطش للثار والعقاب، بدل الرحمة والروحانية الألهية المتسامحة . وربما كان هذا هو مابدأت به أيضا التعاليم الأولى للديانات التوحيدية الثلاثة زمن نشوئها؛ ولكنها سرعان ما تخلت عنها عندما اضحت أداة ايديولوجية بيد السلطة والمتلسطين بأسم الرب وتضاربت ممارساتهم مع حرية البشر التي منحها الله إياهم، بما فيها حقهم بالتمتع بالحياة التي أهداها لهم، وبحرية الفكر والكلمة التي أنعم بها عليهم من خلال العقل الذي وهبه لهم. والغريب ان الديانات التوحيدية الثلاثة ، قد عارضت وحاربت وقمعت بشدة ،وعلى مدى تاريخها السلطوي ولليوم، هذه الهبات الألهية الثلاث (العقل والتمتع بالحياة والعيش بحرية)، وهو تناقض عجيب لايمكن الأجابة عليه الا من خلال مقولة العلمانيين أن لا وجود لأي سلطة بشرية تدعي الكلام بأسم الله وتحل محله، لأن هذا هو الشرك بعينه؛ حيث من يدعي انه أنما يتكلم ويفتي باسم الرب هو في الواقع مشاركة سلطان الرب على عباده؛ وهو يناقض تماما ماأدعته الديانات التوحيدية إنما هي اتت للقضاء على الشرك بالله، في حين انها صارت في الواقع تمارس الشرك من خلال وضع سلطانها على البشر، أي مشاركة الله سلطانه. أن الكتاب يضع امامه العقل والتحليل لتناول أصعب الحقائق والأحداث، ويوضح ان الدين ليس هو الحل ، بل الأخذ بالعقل والعلم والتنظيم وضمان الحريات (أي العلمانية) لبناء مجتمعات مزدهرة قادرة على النهوض والعمل والأبداع, والتخلي عن التعاويذ الدينية التي ملات الأرض صراخا وفشلت على مدى تاريخها في بناء دولة عادلة، ومجتمع منظم وانسان واع ومنتج وروحاني (كالذي انتجته العلمانية). نرجو أن يملأ الكتاب فراغا ملحوظا في الفكر و المكتبة العربية والمشرقية عموما .

الباب الأول
قراءة عامة لتاريخ وصيرورة
الأديان الأبراهيمية الثلاثة

1. خصوصية نشأة الديانات الأبراهيمية

تختلف الديانات الأبراهيمية عن ألأديان الأخرى التي عرفها الأنسان منذ القدم ، فهي لم تولد لحاجات روحانية بل ولدت ضمن حركة تمرد أجتماعي للأحتجاج وطلب العدل والأصلاح وسط ظروف صراع أجتماعي وسياسي واقتصادي تطلب التخلي عن تعدد الألهة والأستعانة بأله أعلى واحد ، جبار وقوي ،هو الله، لأحداث تغيير أو ثورة داخل المجتمع تقيم مبادئ العدل الألهي بين الناس ،بعدما ساد ظلم من تحالف السلطة والثروة والكهنوت.
كانت الأبراهيمية هي البادئة بدعوة التوحيد، ونشات بعد أن صادر الملك «نمرود»[1] جميع السلطات المدنية والألهية ووضعها بيد واحدة ، هي يده ، واعلن نفسه ألها أعلى من جميع الهة سومر وبابل. وقد خالف النمرود أهم اسس ديانات وادي الرافدين المتوارثة، وهي توازن السلطة بين الملك من جهة، والألهة ممثلة بمجمع لكهنتها ، من جهة أخرى. لقد كان ابراهيم أحد هؤلاء الكهنة، وتمرد على النمرود رافعا شعاره العظيم «الله اكبر» ، أي ان الله أكبر من اي ملك متجبر مهما عظمت قوته وسلطانه، والذي كان قد مارس قمعا شديدا على الناس وفرض الضرائب الباهضة وقام جنوده بمصادرة المحاصيل والماشية ، وماتقع عليه ايديهم ،وبشكل لم يألفه سكان وادي الرافدين من قبل . وكان لابد لأبراهيم من اللجوء لقوة عليا طلبا للرحمة بالبشر بعد ان الغى نمرود بانقلابه الألهة العديدة والتي عجزت في ايقافه عن غييه، وخذلت سكان أور وبابل للوقوف بوجهه. أن فكرة الأله الأعلى الجبار لهي حقا نقلة فكرية عظيمة للوقوف بوجه الملوك الطغاة عندما يتوجون انفسهم الهة، وهي الفكرة التي لجأ لها أبراهيم ليقول كلمته بوجه النمرود، ويرحل تاركا بلاد الرافدين هاربا من الظلم.
وتوالت الدعوات بعد أبراهيم ، جميعها تستنجد بالله القوي الأعلى العظيم، لمواجهة أي ملك متجبر . فكان الأمر نفسه مع موسى الذي طلب عون الرب لأنقاذ شعبه من بطش فرعون وجنده، بعد اتهامهم لموسى واتباعه أنهم يخططون لأنقلاب للأستيلاء على السلطة،ومن خلال فكر التوحيد كأداة، لتغيير ديانة مصر ، تمهيدا للأستيلاء على عرشها، وكان موسى هو نفسه مرشحا للجلوس على ذلك العرش، فقد كان قائدا بارزا للجيش المصري .
ما تشير له الأحداث زمن الملك أخناتون الذي أنقلب على الديانة المصرية القديمة (قرابة 1326 ق.م.) لصالح التوحيد، وقرب الموحدين منه وانتقل لعاصمة جديدة تكون مركزا له ولهم بوجه كهنة مصر. وبعد بعد موت أخناتون ،هرب موسى واتباعه من قمة هرم السلطة الى اليهود العاديين ،خوفا من انتقام الفرعون الجديد بتحريض من كهنة ديانة مصر القديمة، ليقودهم الى أرض مليئة باللبن والعسل أهداها له «الله» مكافاة على صبره وصبر أتباعه الموحدين، الذين في الواقع لم يصبروا ،بل قتلوا موسى[2] وهم في طريقهم الى كنعان لجزعهم من الهه ، وعليه لم نعلم لليوم كيف تسرع الرب وكافئهم ، كما دون في التوراة، بما لم يصبروا عليه، وهو عالم الغيب.
وكان الأمركذلك مع المسيح «يسوع الناصري» الذي ثار تمردا على الأستغلال الفاحش للفقراء، الذي تم باسم الرب والأله نفسه، على يد تحالف الأغنياء مع كهنوت التوحيد في أرض كنعان. وأدخل يسوع ولأول مرة، اضافة الى الجبروت والقوة والأنتقام «ليهوا» أو «ألوهيم» اي الله، مفهوم الرحمة والروحانية الألهية في الديانة الأبراهيمية والموسوية، ووسع شمولية الرحمة الألهية لكل الناس، وليس لقوم بعينهم، وقاد تمرد أجتماعيا على تحالف الدين والثروة طلبا للأصلاح والعدل الألهي، وأتهم انه يسعى للسلطة والنفوذ والسيطرة على عرش أورشليم، فصلب أمام مرأى الفقراء من مناصيريه، وقامت المسيحية على اساس اتهام الموحدين قبلها بمصادرة الرب تحريفا من قبل الكهنوت.ولم تكن دعوة محمد تختلف كثيرا عن حيثيات وظروف دعوات من سبقه، حيث ثار بوجه الطغمة الثرية الفاحشة لقريش والتي مسكت بيدها السلطة والثروة معا في مكة، والدين ممثلا بالكعبة ، مقر جميع الهة القبائل في الجزيرة، مدعين حمايتها، ولكن الوثنية كانت أداة أساسية لبناء ثروتهم وبسط سلطتهم على مكة. قاد محمد عام 610 م، ثورته التوحيدية مستنجدا ايضا بنفس الرب الأعلى ، استنبطه من أطلاعه على اليهودية والمسيحية، واستشهد بما ورد في كتبهم، وقاد ثورة ضد أثرياء مكة ونجح في امره حيث فشل موسى

==========

(1) نمرود اسم ملك سومري او اشوري ورد في التوراة وكرره المسلمون وفي الواقع لايوجد ملك في بلاد الرافدين بهذا الأسم بل هو اسم مدينة اشورية ، وعليه نستخدم نفس الأسم «نمرود» بمعنى رمزي ،اي احد ملوك السومريين .
(2) انظر فرويد « موسى واتوحيد»، دار الطليعة ، بيروت 1982.

ويسوع ،واقام دولة ومجتمعا يحكم باسم شريعة الله الذي قال به موسى ويسوع، ولكنه كسابقيه، كان الها منحازا اكثر لمحمد واتباعه، رغم أضطرار الأخير بالأعتراف باليهودية والمسيحية بداية دعوته لحاجته لهم، ولكنه حاربهم وطردهم وسباهم من الجزيرة عندما نجح في اقامة سلطته في المدينة لرفض خضوعهم اليه ، أي رفضهم التخلي عن دياناتهم . ومثل ماقام به محمد، قامت به المسيحية بطرد وتشريد المسلمين وذبح اليهود و اليعاقبة المسيحيين الشرقيين من اسبانيا منتصف القرن الخامس عشر بفتوى الهية صادرة من اعلى مجلس رباني في الفاتيكان . ومثلهما قام المستوطنون اليهود بتشريد وطرد المسلمين والمسيحيين من فلسطين في القرن العشرين باسم وعد الرب لهم في ناموس موسى.
من السرد الموجز جدا أعلاه ، يمكن لأي قارئ محايد ان يستنتج أن أهم مايميز الديانات الأبراهيمية عن بقية الديانات قبلها ، أنها ولدت جميعها في خضم صراع على السلطة والثروة والنفوذ .بدات بدعوة التوحيد لأقامة مجتمع العدل الرباني ، ولكنها بعد تسنمها السلطة أتت بنواميس أدعت أنها ربانية «شرائع الهية» يتيح لها باسم الرب قتال وتشريد شعوب بكاملها ، وأن تفرض العقاب في الحياة لمن يخالفها من الأفراد، وحتى، من فلت منهم في الدنيا ، فهو لن يفلت في الأخرة ،والجنة الدائمة الخالدة لمن قام بما أمر به الله واطاع ذوي الأمرمن بعده وقام بالعبادات وسار وفق الشرائع والعبادات التي يقال ان الرب بلغها لرسله، ومن بعدهم لمن سهر على اقامتها، وهم كثر ، من الملوك والأمراء والكهنة والأتباع ورجال الدين والجاهزين للنطق بالحكم الألهي واقامة الحد، ومنه القتل ، او الحرق، أو النفي ، لكل من أتهم بالزندقة او الهرطقة من رجال العلم والفكر ،وجميعها تجري باسم الله وشرائعه. وهكذا تحولت الدعوات الأولى للأصلاح الأجتماعي والثورة باسم الرحمة والعدل الرباني ضد ملك طاغ، مثل نمرود، أو ضد تحالف السلطة والكهنوت في أورشليم ، او تجبَر اثرياء مكة على شعبها ، الى اقامة سلطات مقدسة تحكم باسم الله، ولكنها أثبتت وعبر تاريخها المعروف أنها أكثر تجبرا وعدوانية وقمعا مما هي ثارت عليه في الأصل.

2. قراءة لمسيرة الديانات الأبراهيمية وخطرها على المجتمعات الأنسانية

يمكن على الأقل أستخلاص ثلاثة أخطار شكلت وستبقى تشكل خطرا وجوديا كبيرا على الأنسان وعلى الأنسانية جمعاء نتجت عن الديانات الأبراهيمية:

1. خطر التمييز بين البشر، وخلق الحواجز النفسية والفرقة والبغضاء بينهم ، والخوف من بعضهم ، رغم أقرارهذه الأديان الثلاثة جميعها ان الله خالق للبشر جميعا، ولكنها دوما أستخدمت وشرعت التمييز بينهم، وتكفير بعضهم بعضا، تعدتها حتى للتمييز بين اتباع الديانة الواحدة التي انتجت طوائف منهم تقاتلت بينها بمرارة على مدى التاريخ ، وبعضها يتقاتل لليوم. الكل أدعى ويدعي انه الأقرب لله وأنما يقوم بما امره به الله ووفق ماهو منصوص في الشرائع. ويمكن اليوم القول، بثقة والى حد بعيد من الموضوعية، انه لم تعرف البشرية قط عامل مفرق بين الناس والشعوب قدر ماقامت وتقوم به الديانات الأبراهيمية الثلاثة. واذا كانت النازية ،مثلا، ايديولوجية تفرق بين الناس ومساواتهم كاجناس، فهي زالت بزوال حكامها ، أما الأديان الأبراهيمية فهي تمثل كلمة الله وقوانينه، وهي ستبقى قائمة ببقاء هذه الأديان.
2. خطر تطبيق الشرائع وفرضها على الفرد والمجتمع باسم الله والرب الأعلى . بمعنى أخر ، ان ماأتت به اليهودية، مثلا، قبل ثلاثة الف سنة من نواميس يبقى قائما لليوم ،وسيبقى للأزل ، حتى ولو كان بعضها يناقض قوانين تطور الأنسانية وحضارتها : مثل التمييزبين الشعوب و بين الرجل والمراة. ورغم أن يسوع قام بأضافاته الروحانية لها من خلال تعاليمه الواردة في الأناجيل ، ولكنه أجبر المسيحي الجديد، الألتزام بما جاء في الناموس اليهودي القديم . وكذلك الشرائع في الأسلام، فما حلله محمد يبقى حلال للأخرة وماحرمه يكون محرما لحينها . وعليه اضحى اي عمل يأمر به الأوصياء من ذوي الأمر بعد الأنبياء والمخولين منهم والقائمين على الدين هو بمثابة امر الهي وواجب غير قابل للتغيير والمراجعة. سواء كانت فتوى بقتل عالم أو متصوف بتهمة الهرطقة ، أو تزويج طفلة قاصرة على رجل بعمر جدها ان كان متمكنا ، اوسبي النساء واستعبادهن كجواري أو رقيق لأن الله اباح ذلك، وهلمجرا مما يعرفه الناس اليوم وعلى إمتداد تاريخ طويل من ممارسات هذه الأديان التي

لاتمتلك اية صفة من صفات الله ولاتمت لله باي صلة ، ومورست باسم الرب من خلال نواميس هذه الأديان الثلاثة أخطر الجرائم الأنسانية و نسبت الى تعاليم الله ، رغم ما نعرفه ومن خلال العقل الذي وهبنا اياه الخالق، أنها أنما أجتهادات بشرية لمصالح دنيوبة البست لباس الرب.

3. خطر مصادرة العقل وحرية الفكر والعلم بأسم محاربة الهرطقة

لم يشهد الفكر والعقل البشري في تاريخه أضطهادا قدر أضطهاد الأديان الأبراهيمية لهما خلال فترة سواد هذه ألأديان وسطوتهما في السلطة، ولم يشهد التطور الأنساني الحضاري والأنساني والثقافي أزدهارا الأ حينما كانت هذه الأديان منكفئة داخل معابدها، تاركة المجتمع ليمارس نوعا من الحرية الفكرية والعقلية . هذا مارأيناه في الشرق من أزدهار للحضارة حين يسود العلم لفترات، مثلما رأينا عند بعض الخلفاء المتنورين العباسيين والأمراء الأندلسيين، ثم تنكص هذه الحضارة حينما يسلط خليفة شاعري أو أمير سلفي سيفه على الفلاسفة والعلماء . وحدث نفس الأمر في الغرب ، فحينما حكمت الكنيسة الف عام ماتت أوروبا الف عام ، ولم تنهض من جديد الا بعد تحجيم الكنيسة، فازدهرت اوروبا بعد الطلاق معها وعزلها عن الدولة والمجتمع .

4. قراءة في عقلنة الديانات الأبراهيمية من خلال روحنتها وتخليصها من الشرائع

لدى الديانات الأبراهيمية تراث متراكم وكبير من الأفكارالروحانية الرائعة تبلورت من خلال الحركات الفكرية والأصلاحية والروحانية من داخل هذه الديانات نفسها ،مما مكنها سابقا ويمكنها مستقبلا من أغناء الفكر الأنساني بمفاهيم روحانية عميقة يمكنها أن تساهم في تطوير الفكر العقلاني و الروحاني معا وجنبا الى جنب، أو مايمكن تسميته «الفلسفة الروحانية» اي علم تطوير الذات والسمو الروحي للأنسان، ويمكن للأديان الأبراهيمية ان تساهم في التطور الروحاني للبشرية من خلال الأصلاح الفكري والأجتماعي لها، وأهمها التخلي عن الشرائع المناهضة للمفهوم الروحاني التسامحي للخالق، وكف التدخل في حياة الناس وشؤون المجتمع باسم الرب، وحصر مهامها في استكشاف وتطوير الروحانيات الألهية، مثلما فعلت الصوفية ، ويمكن لهذا الأصلاح ان يتم من خلال أدوات العلمانية التي تقوم على اساس العقل والمواطنة بعيدا عن التمييز الذي جاءت به الأديان، ويؤدي بصورة موازية الى أصلاح المؤسسات الدينية نفسها وعلى يد المتنورين فيها ، ولعل أهم مفاصل الأصلاح هذه الديانات :

1. التخلي عن الشرائع ، وتحول هذه الأديان الى طقوس وممارسات روحانية
2. التخلي عن التدخل في شؤون الناس وحياة المجتمع وتحولها الى صياغة تطوير الحياة الروحانية للفرد وليس للجماعة (كما قامت به المسيحية مثلا في الدول العلمانية)
3. تحولها من الدعوة لحياة أخرى في الأخرة، تؤدي الى العدمية، لتركز على العيش اليوم وعلى حياة رافهة للفرد وتعمل على صيانة الأرض والنبات والحيوان، وليس لفناء الحياة، كما قالت دوما ومازالت تدعي اليوم.
4. تحولها من أداة تهديد ووعيد لمن لايتبع الفروض والطقوس الى أداة لفهم روحاني للفروض الدينية مثل الصلاة والصوم والزهد دون فرض أجتماعي لهذه الطقوس الفردانية.

5. قراءة عامة لتاريخ وحاضر ومستقبل الديانات الأبراهيمية

يمكن تحديد ثلاثة مراحل في تطور الديانات الأبراهيمية الثلاثة، موضحة في المخطط المرفق على الصفحة التالية:

1. **مرحلة النشوء** : وتتميز بالروحانية العالية الداعية لأصلاح أجتماعي وسياسي وفق مبادئ العدل الألهي واقامة مجتمع التكافؤ والرحمة بين الناس حيثما ساد التسلط والثراء الفاحش وأساءة استخدام النفوذ. ومرحلة النشوء هي اغنى مراحل هذه الأديان واكثرها تقدمية من وجهة نظر تاريخية.
2. **مرحلة الصيرورة والممارسة :** وهي أكثر المراحل رجعية وأنغلاقا وتخلفا، حيث تشترك هذه الأديان جميعها بممارستها العنف وتشريع القتل والغزو وقمع العقل والعلم والمعرفة ومصادرة الحريات وعقول الأفراد تحت ستار أقامة « الشرائع الربانية» ، ولكنها في الواقع ممارسات تخدم مصالح ملوكها وأمرائها واثريائها.
3. **مرحلة الأنكفاء الديني والتحول للعلمانية:** بدأ دور الأديان الأبراهيمية في حياة الناس بالتراجع خلال فترات سيادة العلم والعقل في أدارة الدول و التي أنبرت افى تطويرحياة الناس والمجتمعات ،ونجحت في أقامة أزدهار حضاري واجتماعي بعد تحجيم دور هذه الأديان. والعكس بالعكس صحيح ايضا. فمرحلة التنوير الأسلامي، مثلا، والتي استمرت قرابة 700 عام، وبتأثير ترجمة وتفسير لأعمال الفلاسفة اليونان ، انتجت فكرا علميا و عقليا وعمليا زاخرا، حيث اعتكف الدين في المساجد وسادت الفلسفة، وتحول المجتمع الشرقي الى الأزدهار. ولكنه انقلب الى النكوص والأنحطاط الحضاري عندما ساد التدين وغاب العلم والعقل والبحث. ومنذ عزل الكنيسة عن الدولة في أوروبا ،بفضل حركات الأصلاح الفكري والأجتماعي، تسير الحضارة الأوربية والى يومنا هذا الى الأمام ودون تراجع ، وربما يمكن أرجاع أمر أنتكاسة العصر التنويري في المشرق انه لم يصل لمصاف اقامة دولا علمانية تعطيه صيرورة الأستمرار، كما في اوروبا، مما جعلها لقمة سائغة للسلفية وفتاوى رجال الدين من اتباعها. لقد نجحت اوربا ، والأمريكيتين ومعظم اجزاء اسيا الشرقية في تحويل حركة الأصلاح الفكري الى سلطات علمانية ضمنت لها استمرارية النمو الفكري وألأزدهار الحضاري ،وتخلصت من عبأ تدخل الديانات الأبراهيمية في شؤونها ، وحولتها الى كنائس ومعابد ومساجد تمارس فيها الشعائر فقط دون دور لها في شؤون الدولة والمجتمع.

6. مستقبل التدين والديانات الأبراهيمية

لو نظرنا اليوم الى سكان العالم البالغ عددهم قرابة 7,5 مليار انسان لوجدنا ان قرابة 95% منهم يعيشون في دول علمانية لاتأخذ باي دين رسمي ولاتهمها شرائع الأديان الأبراهيمية، وتعامل كافة مواطنيها بالمساواة ووفق قانون مدنيي. وهناك نسبة تصل الى 90% من البشر اليوم لايقومون باية شعائر دينية ولايعتبرون ان هذه الأديان تلعب دورا في حياتهم ، وإن كان فهو منحصرفي تنمية حياتهم الروحانية فقط وعلى مجال فرداني. وفقط 18% من سكان الولايات المتحدة اليوم تزور الكنائس يوم الأحاد* (كانت النسبة 58% عام 1960) ، و10% من سكان روسيا ومثلها في المانيا وفرنسا وبريطانيا ، وحتى في أسرائيل هم فقط 11% من اليهود متدينون ويتبعون الشرائع والعبادات في حياتهم. ولكن نسبة التدين تزداد في المناطق التي تشهد تراجعا حضاريا، فما زالت منطقة الشرق الأوسط وبعض المناطق المتخلفة حضاريا تمارس التدين في دقائق حياتها (تقدر بنسبة 80%)، وولدت حركات وأحزاب دينية تعتقد ان الدين على راس السلطة طريقا لنهوض دولها، مثلل شعار «الدين هو الحل» كما تطرحه حركة الأخوان المسلمين، والذين يرون في الديمقراطية قطاراسريعا للوصول الى السلطة والسيطرة على كينونة هذه المجتمعات. والجزء المتطرف من الحركات الدينية يستخدم قوة السلاح لذلك ، مستفيدين من تراجع المنطقة الحضاري والأقتصادي، وفشل حكومات أغلب الدول الكبيرة في المنظقة (مثل الجزائر ومصر والعراق) في طرح نماذج تنمية تستوعب العاطلين وتحد من الفساد السلطوي .وأمام هذا المأزق التاريخي الذي وقعت هذه الشعوب فيه (بين دول فاشلة وحركات ترجع عجلة التاريخ للوراء) تصبح مهمة تحول الشرق الأوسط نحو العلمانية الليبرالية للحاق بركب الأزدهار الحضاري أصعب واعسر ، ولكن بتحولها هذا، والذي سيتم حتما، تكون هذه الأديان قد خسرت اخر معاقلها وتحولت الى تراث شعبي،أو ثقافي في المتاحف' وجماليات معمارية للكنائس والمساجد التي اقامها البشر على مر العصور السابقة والى اليوم. ==========

(*) وفق أحصائيات أجرتها قناة ABC ألأمريكية عام 2018

مخطط لمسيرة الديانات الأبراهيمية

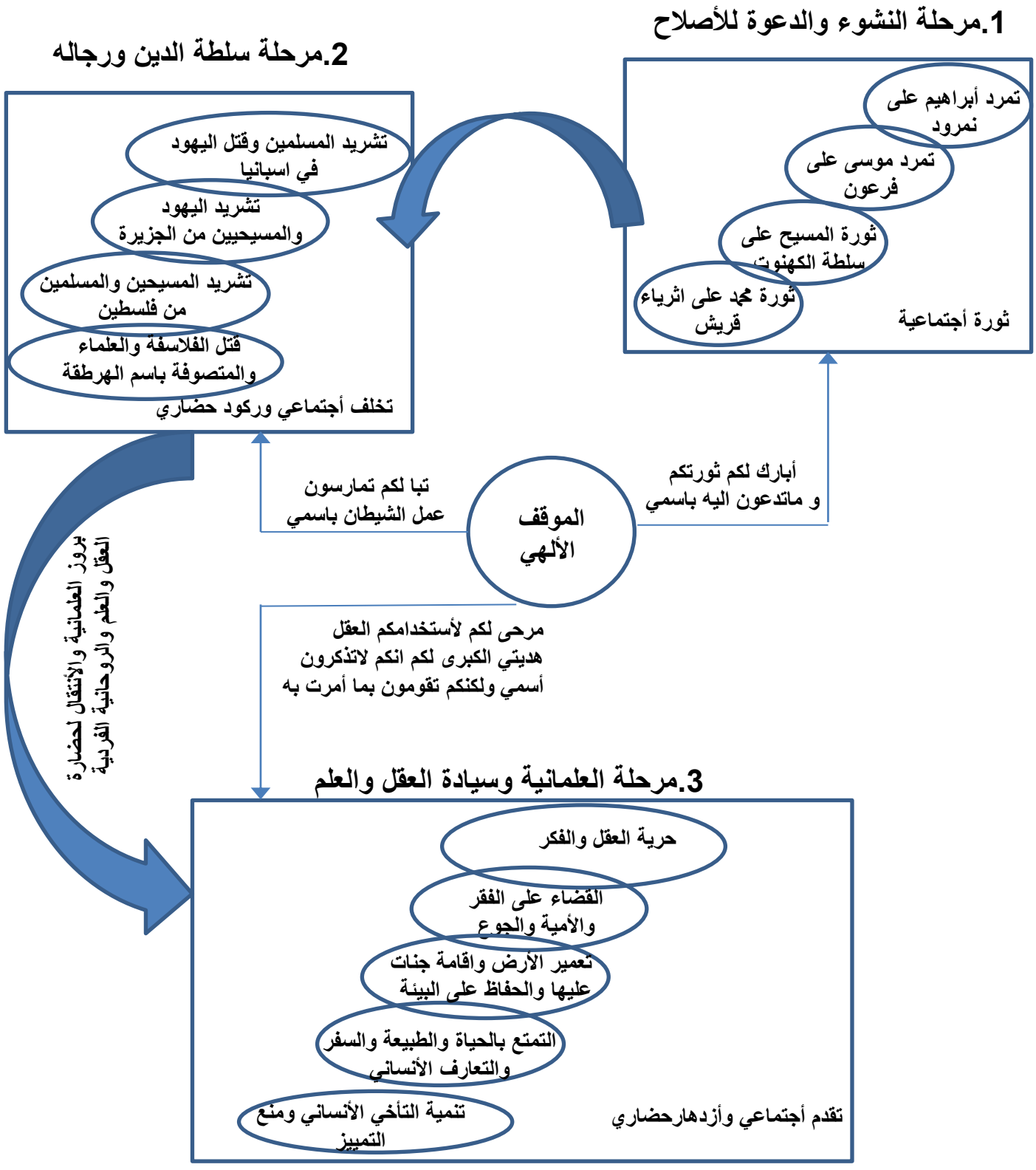

7. المنهج العقلي وأدوات التحليل لدراسة الديانات الأبراهيمية

يتميز الكتاب انه يعتمد اسلوب القراءة العقلية والتحليلية لأهم المفاصل التي شكلت الأديان الأبراهيمية الثلاثة وحياة مؤسسيها ، وقراءة سيكولوجية موازية لشخصياتهم، ويقوم بقراءة الظروف التاريخية التي اثرت مسيرة هذه الأديان (اجتماعيا، اقتصاديا، سياسيا، جغرافيا) . ولا يعتمد السرد التاريخي ، فالكتاب لايندرج ضمن دراسة تاريخ هذه الأديان، رغم انه يلتزم بدقة المكان والزمان والتسلسل الحدثي التاريخي، ولكنه يقوم باستقراءات ربما تختلف عما جاء في علم تاريخ الأديان، وهي لاتستطيع دحضها ،كونها مبنية على اسس منطقية متينة، بعضها ينشر لأول مرة باللغة العربية ، وبعضها منثور في كتب وبحوث قديمة أوجديدة، قمنا بالأستفادة منها في تكوين المادة الأستقرائية للكتاب . وسواء كان القارئ مؤمنا ام علمانيا، متدينا أوغير متدين، فهو مطالب باستخدام عقله ومعرفته العقلية فقط (والعقل هو صناعة الله وأعظم هبة من الرب له)، فالكتاب لم يكتب لغرض التدوين التاريخي لهذه الأديان، بل لمراجعة تحليلية لها وما نتج عن ممارساتها من تخلف وفرقة وحرب على العقل والأنسان والمجتمعات ، والغرض هو لدحض من يدعي من المتدينين «ان الدين هو الحل» ، فالكتاب يبرهن من خلال مراجعاته « أن الدين هو المشكلة»، وما التخلف الحاصل اليوم في المجتمعات الشرق أوسطية والعربية خصوصا والأسلامية عموما، الا دليل على ذلك،وماالخلاص الأ بالعلمانية ، ماقال به العلماء والفلاسفة وأثبتته تجارب الشعوب ، اي الأخذ بالعقل والعلم في بناء الدول والمجتمعات والأفراد، وجعل الأديان ممارسة فردية لاعلاقة لها بالدولة والمجتمع، وتحترمها ضمن مجموع الحريات التي توفرها الأنظمة والدول العلمانية لمجتمعاتها ومواطنيها.

الباب الثاني
ظهور التوحيد الأول وتكون اليهودية

1. ولادة التوحيد الابراهيمي في بلاد الرافدين

من هو أبراهيم وقراءة لظروف ظهوره

لاتوجد مدونات أكدية أو بابلية تثبت وجود شخصية أبراهيم ، ولكن وردت قصة دعوته التوحيدية في التوراة، وكررها القران بعد الف عام بعد تدوينها وبنفس المحتوى تقريبا. واذا أخذنا المصدر التوراتي ، فان النبي ابراهيم قد ولد، على اغلب الظن، في مدينة اور السومرية ، أو ربما في بابل وذلك قرابة ٢٠٠٠ قبل الميلاد(1) ، لأب يبدو انه من علياء الكهنوت، وورث أبراهيم الكهنوتية عنه. وكانت سومر حينها قد وقعت بيد الاكديين ، ثم عادت للسومريين من بعده، ومن بعدهم ساد البابليين، ولكن طابع الديانة السومرية لم يتغير في هذه الحضارات الرافدية، بل انتقل بسلاسة بينها. فالملك ، في هذه الحضارات، كان يتوج من قبل مجمع للالهة يمثلهم كهنوت يشكلون السلطة الثانية الموازية له. فهم وسطاء بين العامة والالهة ، وبين الملك والالهة من جهة أخرى . ولكن يبدو ان ملكا متكبرا تبوأ العرش السومري، وأساء لرعاياه وفرض ضرائب باهضة عليهم وقمع كل معترض عليه (ورد أسمه النمرود في التوراة ولكن لم يرد هذا الأسم في ألواح ملوك بلاد الرافدين التي عثر عليها وفيها مدونة أسماء كل ملوك السلالات الرافدية والأقرب لفظا هو الملك «أورنمو» (حكم في أور بين 2047-2030 ق.م.)، ولكن سنستخدمه بنفس الأسم و المعنى أي «النمرود». أن غرور النمرود وطموحه لسلطة مطلقة ،كاي ملك متجبر، هو أمر وارد، فهو ليس الأول في التاريخ، ولكن النقلة النوعية التي قام بها ، كما يبدو، أن قام بتغيير التوازن القائم بين الألهة والملوكية ، إذ أعلن نفسه الها أكبر وحيد أعلى من اجميع الهة وادي الرافدين ، وامر مجمعهم أن طاعته مباشرة، اي بمعنى اخر، شبه الغاء لسلطة الألهة القائمة من خلال الغاء سلطة ممثليهم من الكهنة؛ و بذلك يكون قد جمع الألوهية والملوكية بيده. وقد هدد النمرود هؤلاء الكهنة بالقتل وبالحرق امام العامة من لايقبل تتويجه كأله أعلى، ولايقر له ألوهيته . ويبدو ان إبراهيم تمرد؛ ويبدو ايضا انه ربما كان الوحيد، بين الكهنة من ممثلي الالهة الرافدية الشهيرة، ممن رفض أدعاء نمرود بجمع الالوهية والملوكية معا. وهنا أطلق ابراهيم شعاره البليغ " الله اكبر" اي أن الله اكبر وأعظم من اي حاكم متجبر على الارض. ومنها كانت نقطة البداية لنشوء التوحيد. وهاجر إبراهيم مع زوجته الرافدية العراقية ألأصل سارة (وعليه بُني الرأي أن اصل اليهود من نسل ابراهيم هم عراقيون اقحاح كونهم من أب وأم عراقيين). ويعتقد أن ابراهيم، قد دبر اموره للهرب قبل أعلان موقفه علنا، واستطاع الهرب بمساعدة بعض اتباعه من المحرقة العامة التي أمر النمرود باقامتها لحرقه وتمكن تحت جنح الظلام التسلل الى طريق البادية المؤدي الى الشام والجزيرة، ومن هناك الى مصر للقاء الفرعون ملكها؛ العدو اللدود لبابل، لأبلاغ تظلمه ورفضه للملك المتجبر في بلاد الرافدين.

==========

(1) يرجح الكثير من المؤرخين ولادة النبي إبراهيم الي الفترة بين 1800 الى 2300 قبل الميلاد والرقم الأخير يشير الى ولادته قبل سقوط السلالة السومرية على يد سرجون الأكدي قرابة عام 2250 ق.م. بينما التاريخ الأول لسنة ولادته 1800ق.م. يشيرالي فترة السلالة البابلية الأولي والتي انجبت حمورابي أول مشرع لحياة التمدن في التاريخ قرابة 1750 ق.م. وعليه فقد تم أستخدام التاريخ 2000 ق.م. على أعتبار أن النبي إبراهيم أما أن كان ولد في بابل (بناها سرجون الأكدي قرابة 2200 ق.م.) ، أو يكون ولد في أور وصار كاهنا فيها بعد استرجاع الملكية السومرية لأرثها، وفي كلتا الحالتين بقيت ديانة سومر هي ديانة أكد و بابل وأشور. أن أنتقال الكهنة الي معابد الهتهم الى العاصمة الجديدة بابل أمر ممكن ووارد.

قراءة لأسباب التمرد الأبراهيمي

ربما يمكن إرجاع سبب تمرد إبراهيم، ولجوئه لفكرة التوحيد، ناجم عن رفضه لفقدان المنصب والمكانة الأجتماعية الهامة التي كان يتمتع بها الكهنة. وشتان، بين أن يكون إبراهيم ممثلا للألهة في مجمعهم، او أن يعمل تابعا لملك، حيث سيفقد القرابين والتضحيات ، أضافة للمركز الأجتماعي والسلطوي المرموق الذي يتمتع به مع بقية الكهنة. أن فقدان كل هذه الأمتيازات يشكل، بدون شك، ضربة قوية لمركز الألهة والكهنة معا ولا نستثني هنا ربما الطبيعة الشخصية لأبراهيم ، وميله كأي أنسان ثائر؛ للدفاع عن حريته وذاته،أضافة لوظيفته المميزة في تمثيل الألهة، وأعطائها الأولوية على هبات الملوك أوالتقرب من موائدهم؛ حيث أن الملوك تعودت أن تغدق على الكهنة المال والثروة لشراء ذممهم وولائهم. ويبدوأن أبراهيم فضل العيش في الغربة، حتى ولويعيش فقيرا، على الخضوع لحاكم ظالم متجبر، فهو يعلم أن الملوك ليسوا خالدين كالألهة. وواقعا، فبذهاب النمرود بعد سنوات ، رجعت الديانة السومرية الى سابق عهدها وتقاليدها، حيث توج على رأس الهتها أنليل، وأستمرت كذلك في بابل بتتويج مردوخ ، ومساعدته عشتار الهة الحب والخصب؛ ورجع تقاسم السلطة بين الملوكية والألوهية الى سابق عهدها وتقاليدها.

نظرة على الرواية التوراتية-القرانية للتوحيد الأبراهيمي

لم يتم طرح الدعوة الابراهيمية ضمن اطار نشوئها السياسي الأجتماعي الموضوعي، كثورة فكرية على سلطة الجبروت والطغيان لملك ظالم، بل طرحت التوراة، ورددة من بعدها القران، أن الأمر كان رؤيا (حلم) راود ابراهيم ، ظهر له الرب في المنام فجأة ، ويدعوه لعبادته، والتخلي عن تعددية الألهة (في القران وردت الأصنام وهو أستخدام رمزي كي يفهمه العرب البدو، والواقع فهي لم تكن أصناما بل الهة رمزية متخصصة كل منها بشان من شؤون الحياة ولها مجمع يمثلها على الأرض هم الكهنوت). وأكتفت التوراة مبتصوير تمرد ابراهيم كأنه تمردا على المنظومة الدينية المتعددة الألهة السائدة أنذاك. ولابد انه يوجد سبب لأخفاء جوهر الحركة الابراهيمية، فهي قطعا ليست نزوة أو حلم؛ بل تمردا على ملك متجبر، والخيار الأبراهيمي كان الأستعانة بقوة أعظم وأكثر جبروتا من الملوك، الله، المجرد من الرؤيا، ومنه ينتظر الأقتصاص من الملوك وخاصة من كان منهم الظالم والمتكبر.والواقع، أن بابل وأور وأكد أوأشور لم تكن بتلك الحاجة الماسة للتوحيد الالهي وقت ظهور ابراهيم؛ فقد انتقل توزع السلطة والأختصاص بين الالهة السومرية والملوك بنفس السلاسة الى الأكديين ومن بعدهم الى البابليين والأشوريين. أن السلطة موزعة عمليا بين الملك؛ وهو الحاكم الأرضي، وبين الكهنوت ممثلي ألألهة (يمكن تشبيهم بمجلس الشيوخ اليوم). وكان الملك في بلاد الرافدين يصبح بعد تتويجه نصف اله ونصف أنسان، وعليه تبقى الألهة أعلى شأنا من الملوك بصورة رمزية . ويبدو أن كل شيء كان على مايرام؛ أوكما يقال فكل قوم بما لديهم فرحون؛ لولا تسنم ملك متجبر مثل النمرود الحكم (كما ورد في التوراة) ، ومصادرته جميع السلطات، بما فيها الألهية. ويبدو أن الكهنة قد ذعنوا لنمرود خوفا من جبروته وأنتقامه . وربما أمام هذا التنازل والذعن من الكهنوت لملك جائر؛ ولدت لدى ابراهيم فكرة الأله الأعلى التجريدية ، التي لايستطيع أي ملك، أو كائن من كان، أن يتجاوزها. وأدت بأبراهيم الأستدلال الى وجود قوة أعظم من الملوك ، اله واحد وجبار قادر على مجابهة أي ملك جائر، لايخضع لا لنمرود ولا لغير نمرود. خصوصا ان الأله ألأعلى رمز مجرد لايمكن لملك أن يراه أو يخضعه، كما حدث مع كهنة أور أو بابل الخاضعين.

وربما لجأ مدونوا التوراة لقصة الحلم الأبراهيمي (دونت التوراة وفق أغلب المؤرخين في بابل بعد السبي البابلي قرابة عام 589 ق.م.) لتجنب الأحتكاك بملوك البابليين ,اثارة حفيظتهم وهم تحت رعايتهم في الأسر انذاك لتجنب ذكر دعوة ابراهيم تمردا على ملك رافدي، ومن هنا نستطيع فهم لجوئهم الى رواية الحلم وظهور الأله الأعلى لأبراهيم .

قراءة للقاء أبراهيم بفرعون

ربما لم يجد أبراهيم أتباعا له في بلاد الرافدين لقوة الألهة السومرية ، وحاجة الناس لها، وخصوصا عشتار كونها اله الخصب والأنجاب والزرع والحصاد، وهي أهم عوامل الحياة عند سكان وادي الرافدين. وكذلك الحال لم يجد له اتباعا في الجزيرة العربية عند زيارته لمكة، ربما لبداوة وأنغلاق القبائل على نفسها ، وعدم حاجتهم لأله تجريدي. ولكن ترحيبا أعظم وجده إبراهيم في فراعنة مصر، ويعود ذلك لأسباب سياسية بحتة؛ حيث أن قدوم ابراهيم من بلاد الرافدين، العدو التاريخي للامبراطورية الفرعونية، متمردا وللشكوى على ملكها قد نال استحسانا عند فرعونها ، الذي قدر ابراهيم ووهبه الفين أو ثلاثة الاف من الابل (وفق الرواية التوراية) . ونعتقد ان هذا العطاء البذخ هو لدعم أبراهيم عند الرجوع للاستمرار بدعوته، باعتبارها اضعافا للملك الرافدي وتنكيلا به . ولكن الرواية التوراتية تقول ان فرعون قدم لابراهيم ثلاثة الاف من الابل كمهر لزواجه من سارة التي قدمها ابراهيم لفرعون كأخت له خوفا من قتله للاستحواذ عليها، فتزوجها فرعون، ولكن بعد علم الأخير انها زوج ابراهيم، فسخ زواجه منها، وارجعها لابراهيم وقدم له هدية كبيرة صار بعدها أبراهيم غنيا. وتبرر التوراة كذب ابراهيم أن الرب امره بذلك ، وتدين فرعون لأنه اجبر ابراهيم على الكذب ، وهي مسالة غريبة ان يتهم فرعون وهو اخذ صادقا ما اخبره ابراهيم اياه، في حين تبرأ ساحة الكاذب ومن يقف وراه ، وهو امر الرب له كما تذكر التوراة . والمحلل يقف حائرا هنا أهي براغماتية ابراهيم ام الرب ، واذا كان الرب يجيز لأتباعه الكذب للوصول لأهدافهم فهذا يناقض اعجازه بأنقاذ انبياءه (كما أنقذ ابراهيم من نار نمرود) ، ويناقض أهم صفات وتعاليم الله للبشر بالصدق والأتكال على عونه ، وجملة معايير روحانية وأخلاقية عليا يبدو ان الرب الأبراهيمي –التوراتي كان مجردا عنها.

معالم الأله الأبراهيمي التوحيدي

يبدو ان مدوني التوراة لسيرة ابراهيم ، ضمن تجميعهم للتراث اليهودي وكتابته بعد قرابة 1500 عام من دعوة ابراهيم، كانوا يهدفون الى تكريس أهم ألأسس لمفهوم الأله الأبراهيمي الموحد:

- مفهوم عبادة الأله الواحد دون غيره وتحت اي ظروف او مستلزمات.
- أظهار جبروت الرب وأنتقامه (تحديه سواء لنمرود أو للديانات الراسخة في ارض الرافدين)
- أظهار معجزاته لأنقاذ متبعيه (انقاذ أبراهيم من نار نمرود والتي اصبحت بردا وسلاما بامر الرب)
- وجوب الطاعة المطلقة للرب حتى لو أمر بذبح أحد أولادك (كما ورد في أمتحان الرب لأيمان ابراهيم وذلك بأمره بذبح ولده اسحق حسب التوراة، أو اسماعيل حسب القران، ثم بعد تيقن الرب من ايمان ابراهيم، امره باستبدال الذبح لشاة بدلا من ولده) .
- كما وأجاز مدونوا التوراة للمؤمن الكذب والأحتيال على غير المؤمن للوصول الى أهدافه ، من خلال سردهم لوقائع زواج سارة بفرعون.

Abram's Journey from Ur to Canaan (József Molnár, 1850)
هجرة النبي إبراهيم من مدينة أور (جنوب العراق) الى أرض كنعان للفنان الفرنسي جوزيف مونلار (1850)

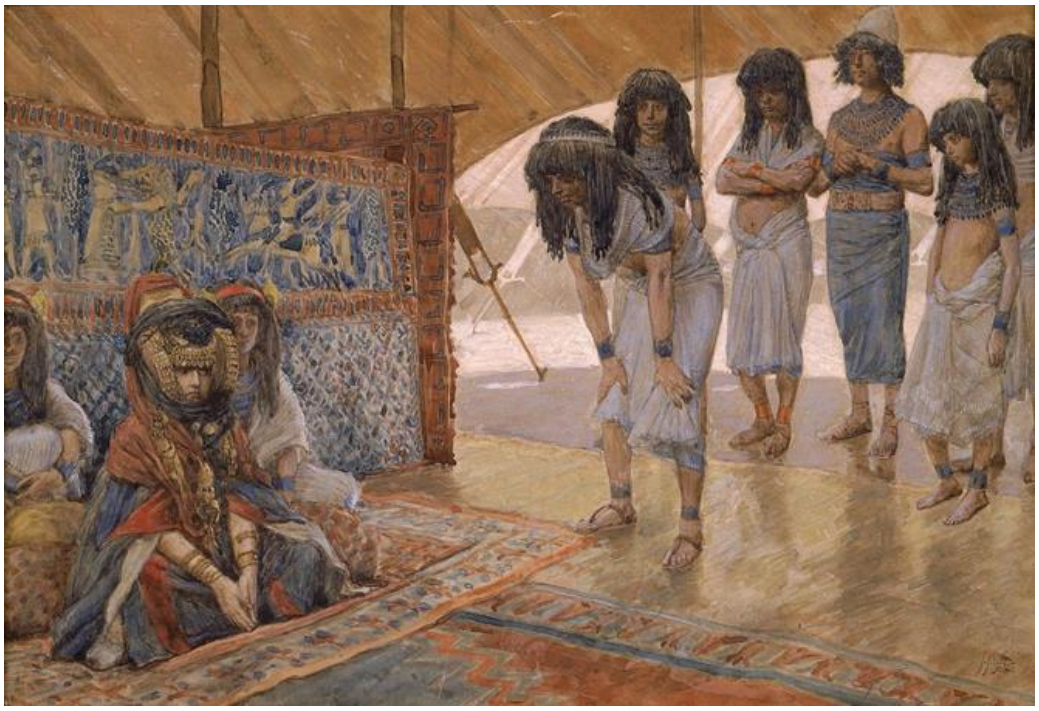

Sarah Is Taken to Pharaoh's Palace by James Tissot (1903)
سارة بعد زواجها بفرعون في قصره ، لوحة للفنان الفرنسي جيمس تيسوت (1903)
وكان ابراهيم أخبرفرعون انها اخته ،فتزوجها الفرعون، وأرجعها لأبراهيم بعدما عرف أنها زوجته، فاي درس سيئ أعطاه ابراهيم لأتباعه واي درس جيد أعطاه فرعون لأتباع ابراهيم

2. قراءة للتوحيد في مصر بقيادة النبي موسى

قراءة لأنتقال التوحيديين لمصر وبروز موسى

هناك فارق زمني قرابة سبعمائة عام تفصل بين الدعوة الابراهيمية المؤسسة والدعوة الموسوية التوحيدية التي قامت في مصر. ولايزال الجدل العلمي قائما عن شخصية موسى ،فلا يوجد ما يدلل او يدحض اية فرضية عن كيفية نشوئه وكيف برز في مصر، ولكن الحد الأدنى لتصور ممكن هو ربما أنتمائه لسلالة ابراهيم بعد هرب ذريته من كنعان الى مصر من جديد،نتيجة لهجوم عليهم من جنود حاكم محلي تابع لمملكة اشور أو بابل طمعا بثروتهم الكبيرة، او أتهاما لهم بموالاة ملوك مصر . وربما قد أخفى مدونوا التوراة في بابل هذه الفرضية لدرء اثارة حفيظة ملوك بابل عليهم وهم في الأسر من عداء قديم.

حيث يصعب تصديق الرواية التوراتية حول وصول ذرية أبراهيم لمصر من خلال قصة يوسف ، أو قصة رمي موسى الطفل الرضيع في النهر، فهي خيال شرقي، ومكرر عن اطفال تركتهم أمهاتهم في سلات عائمة في الأنهر وانتقالهم من النهر الى بيت الملوكية،كما هي قصة سرجون الأكدي[1]، واستخدمه مدونوا التوراة كمثيل رمزي بعد أطلاعهم عليها في بابل اثناء تجميع تراثهم في التوراة او التلمود.

أن القصة التوراتية لوصول يوسف لمصر تحمل خيالا غريبا وتناقضات عجيبة. حيث ترجع غيرة أخوانه من تقريب ومحبة أبيه يعقوب له، فيقومون بتدبير مؤامرة تفضي الى رميه في بئر بعد الأعتداء عليه للتخلص منه. وتنقذه مصادفة احدى قوافل التجار المتجهة لمصر، وتقوم بنقله الى هناك ، لتبيعه لأميرة مصرية اعجبت بجماله، وينشأ في بيت ملكي ، ومنه يمكن التكهن أن موسى اتى من ذريته. واذ تصف القصة ان يعقوب النبي الصبور قد تعرض للعمى بعد فقدان يوسف ، فقد نست ان تبرر كيف يمكن لنبي يريد اصلاح شأن امة التوحيد، وهو لم يستطع ان يجعل من ابناءه غير متامرين وقتلة حتى على أخيهم.

وعلى الأرجح ان لدى المدونين كان هدف اخر: أظهار ان الأنسان غادر وحاسد وفجور حتى ولو كان ابن نبي ، وان الله وحده هو القادر على ردعه ومعاقبته و بالأنتقام منه، ولايجوز الأعتماد على غيره حتى ولو كان من عائلة نبي.

مخطط موسى الأستيلاء على عرش مصر

أن لجوء ذرية أبراهيم لمصر قد وفر لهم الأمان من جديد تحت الرعاية والحماية المباشرة من فراعنتها، وأصبحوا من المقربين منهم ، واستفادوا من نفوذهم هذا لبناء الثروات وتبوءالمراكز، وتدريجيا وعلى مدى قرابة 600 عام بنوا قوة متماسكة في مصر وأصبحوا من ملاك أكثرالاراض خصوبة حول النيل؛واضحوا ذو ثروة هائلة ونفوذ كبير في الدولة. وقد عبر هذا النفوذ عن نفسه بشكل واضح زمن الملك اخناتون الذي بدأ الأخذ بديانة التوحيد الألهي شبه رسميا قرابة 1340 ق.م. ، حيث أصبح أتباع التوحيد في زمنه الفئة الاولى في الدولة ، فهم ماسكي الخراج والضرائب والخزانة، و منهم قادة الجيش ، وكان موسى ابرزهم، حيث كان قد قاد حملة ناجحة لغزو الحبشة زمن أخنوتب الثاني (الأب المباشر لأخناتون أو أخنوتب الثالث) وأصبح بعدها أهم قادة الجيش المصري [2]. وتوطد مركزهم أكثر بعدما قام اخناتون ببناء عاصمة جديدة له وللتوحيدين ، هي«العمارنة» لتحكم مصر، بدلا من مدينة طيبة ، المركز التقليدي للكهنوتية المصرية، والهها المقدس «أمون رع». أن أنتقاله الى العاصمة الجديدة ، وأنحيازه لأعتبار «أتون رع» ، أو اله الشم، هوالأله الموحد في الطريق لألغاء بقبة ألالهة المصرية. وقيامه بتقريب الموحدين حوله، قد أثار، بلا شك، حفيظة العائلة الفرعونية وطبقة الكهنوت حولها، وصار هاجسهم الأول، كما يمكن الأستدلال اليه، التخلص من اتباع التوحيد ومن سار معهم من اتباع موسى ، اي اليهود، الذين سيصادرون السلطة لامحالة بعد رحيل أخناتون، فهي مسألة وقت لا أكثر ويستولي موسى واتباعه على العرش الفرعوني، وفق تصورهم، وربما كانوا محقين .

==========

1 تركز الرواية الرافدية على ان سرجون، المؤسس لأول إمبراطورية في التاريخ، قد انتشل من نهر الفرات وهو طفل من قبل اميرة سومرية ولبراعته أستطاع ان يتدرج في البيت الملكي ويؤسس ألأمبراطورية الأكدية.

2 أنظر بحث سيغموند فرويد «موسى والتوحيد» المترجم للعربية عن دار الطليعة في بيروت طبعة 1982

إخناتون وزوجته نفرتيتي وأسرته يتبركون بآتون (اله الشمس التوحيدي)

Ikhnaton and his wife Nefertiti with their children under the blessing of Aton, the adopted Monotheist God in Egypt around 1340 B.C.

The Finding of Moses, painting by Sir Lawrence Alma-Tadema, 1904

لوحة تمثل العثور على موسى في نهر النيل وفق الرواية التوراتية (للرسام الأنكليزي لورنس الما عام 1904) وهي نفس قصة العثور على سرجون الأكدي في نهر الفرات من لدن العائلة السومرية المالكة والذي توج فيما بعد ملكا على سومر قبل موسى قرابة الف عام ، ويقول فرويد ان هذا النمط من العثور على الأطفال الذين اصبجوا أنبياء وملوكا هو خيال شرقي صرف

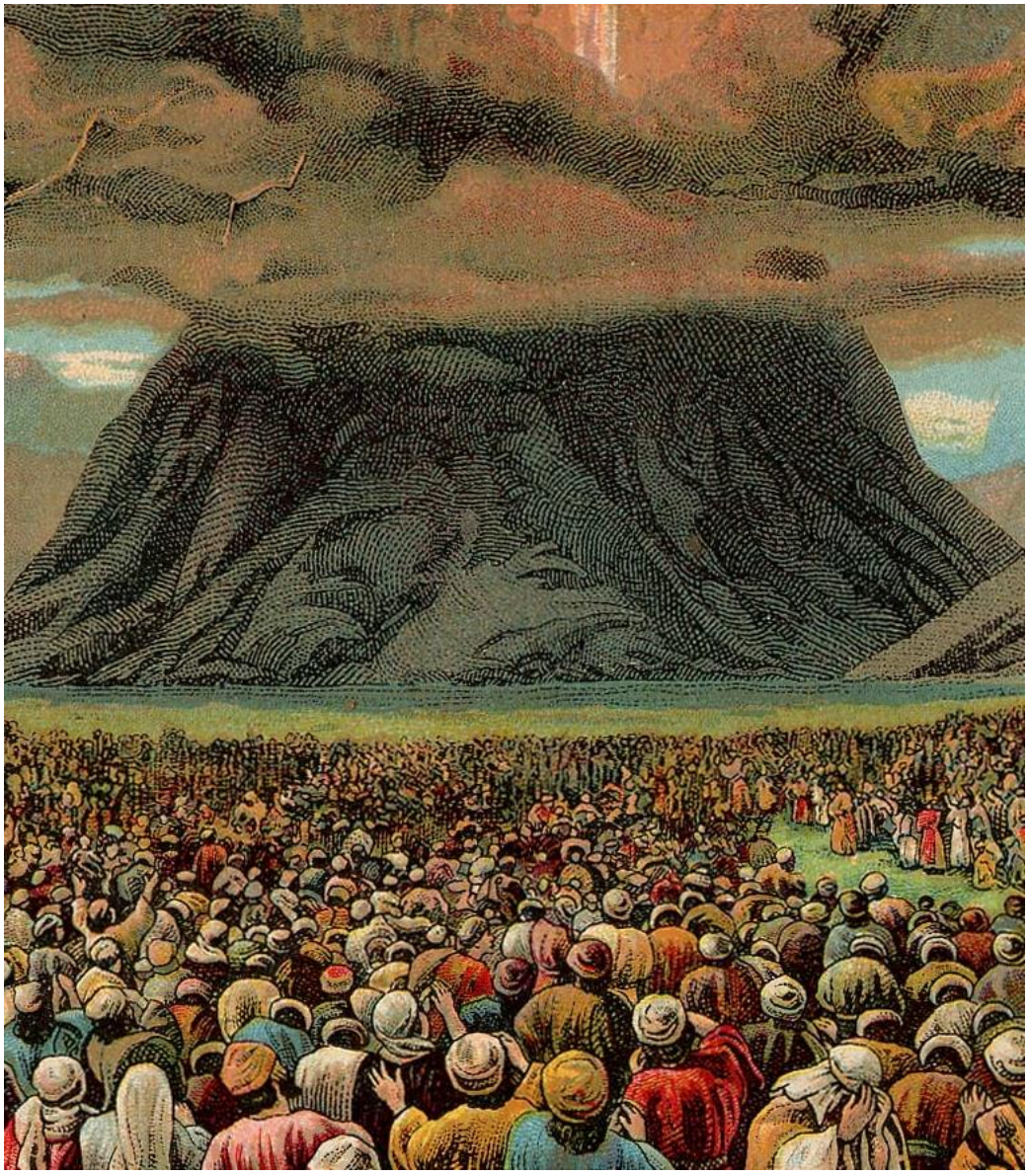

The revelation of the Torah at Mount Sinai as depicted in Biblical illustrations

موسى يكلم الرب في جبل سيناء وفق الرواية التوراتية بعد أن تمرد عليه قومه لعجز الرب عن نصرتهم ولومه لخروجهم من ثراء النيل الى الصحراء الخاوية

ويمكن التكهن أن موسى ربما كان فعلا قد خطط لذلك ، حيث ان الموحدين كانوا يملكون الجيش والثروة والسلطة في أيديهم، وهو ابرز قائد لهم . ,يبدو ان الأمور فلتت، فما أن توفي اخناتون (أو توت عنخ اتون) حتى سارعت عائلته والكهنة بتسمية مباشرة وسريعة للملك الفرعوني الجديد (أخناتوب الرابع)، وهو مناوئ للتوحيد ولليهود من اتباع موسى. وبذلك تم أفشال مخطط موسى واتباعه للأستيلاء على عرش مصر، وبدأت مرحلة انتقام الفرعون الجديد ومن خلفه الكهنة المصريين لتصفية الموحدين وأنهاء نفوذهم. وأعد موسى مخططا موازيا للهرب ، وأمرأتباعه بمغادرة مصر تحت قيادته والعودة الى ارض كنعان مجددا. وبلاشك لم يكن ذلك خيارا سهلا لهم ان تتخلى الفئة المتنفذة والثرية عن امتيازاتها؛ ولكن الخطر المحدق دفع بأغلبيتم لقبول دعوة موسى للخروج و الهرب عن مضض، ومن خرج مع موسى ظلوا يلومونه على فقدانهم لاموالهم وأراضيهم الخصبة ، وأضحوا هائمين في الصحارى، يتذمرون من «الرب ألأعلى» عما حل بهم؛ فهو لم يحمهم؛ عكس امون إله المصريين، الذي ارجع السلطة الى طيبة والثروة للمصريين. وحاول موسى بشتى الوسائل ان يزرع الثقة والصبر والايمان بالله المنقذ ،ولكن عدد المتمردين كان بازدياد حتى وصل بهم الامر الى قتله[1] ليتباكوا عليه بعد نجاتهم ووصولهم لارض كنعان. لصبح، منذ وصولهم الى أرض كنعان، قائدهم التاريخي وأهم أنبيائهم .
ويبدو أن التطلع الى العرش والسلطة والثروة والهيمنة كان سبب طرد التوحيديين من مصر ولو بقوا من المقربين من فراعنتها دون منافسة لهم ولكهنوتهم لما أجبروا الى الهرب منها .وقصة تذمرهم من الرب بقدر ماهي مفهومة لفقدانهم المراكز والثروة والممتلكات بقدر ماهي تناقض انقاذ الرب لهم من خلال عصا موسى السحرية التي جففت مياه البحر الأحمر كي يتم عبورهم الى صحراء سيناء ومنها الى أرض كنعان [2] .
لقد دونت سيرة موسى في سفر الخروج في العهد القديم «التوراة» بعد 800 عام تقريبا في بابل ، ونسبوا اليه تكليمه الرب الذي سلمه الوصايا العشرة في صحراء سيناء أثناء نزوحه مع أتباعه من مصر. و يعتقد ان الوصايا العشر قد الفت على الأرجح في بابل مماشاة لواقع الأسر فيها، وضرورة الأبتعاد عن صفات الجبروت والأنتقام للرب من الأقوام الأخرى والملوك ، واصبغت عل الرب الأوحد، ولأول مرة صفة الليونة والواعظ الروحاني بوصاياه الأخلاقية العشر لأظهار صفات لينة للرب و لأتباعه لتجنب اثارة ملوك بابل ضدهم. و الدليل العقلي يشير الى ان الوصايا العشر دونت واضيفت في بابل، وليس في جبل سيناء، حيث أن موسى لم يكن وقتها مشغولا بتربية أتباعه في الصحراء من خلال هذه الوصايا الأخلاقية، بل كان يبحث عن وسائل لأنقاذ اتباعه من التيه في الصحراء، ووسائل لمواجهة تمرد أتباعه عليه، وعلى ربه، الذي لم ينقذهم من حالتهم المزرية التي وضعوا اللوم فيها على موسى بسبب اطماعه في السلطة وعرش مصر، وانتهوا لقتله وهم في الصحراء، فلا توجد أهمية للوصايا العشر الأخلاقية عند كلام الرب مع موسى في هذه الظروف القاسية، كما ترد في التوراة.
ومن جديد يمكن ملاحظة ان الصراع على السلطة والنفوذ في مصر ، بعد بلاد الرافدين، هو من حدد مسار التوحيد وبرزت الموسوية كمرحلة هامة في تاريخ التوحيد وصور انه ألأب الروحي والمنتقذ لقبائل التوحيد.

==========

(1) يطرح الكثير من محللي التاريخ القديم أن ظاهرة المد والجزر هي التي أنقذت القبائل اليهودية عند هربها وعبور البحر الأحمر من أقرب نقطة شماله لتختفي الأثارأبتداء من بعد الظهيرة حيث ترتفع المياه لتغطيها .
ويشار أن الديانات التوحيدية أذ تحرم السحر، لأنه محرم من الله (كونه يحمل في طياته مشاركة الرب قواه الخلاقة)، ولكنها تجيزأستخدامه حتى من قبل أنبياءه مثل قصة عصا موسى السحرية، او أسحار سليمان للحصول على الكنوز كما وارد في التوراة والقران. ولو صحت هذه الرواية التوراتية لأمكن التساؤل:ألم يكن أسهل على موسى أستخدام عصاه لذر العواصف الرملية ضد الجيش الفرعوني، من شق البحر الأحمر.

3. قراءة للسيرة التوحيدية اليهودية في مرحلتها الثالثة –سفر الملوك

ان القبائل التوحيدية التي وصلت الى أرض كنعان أخذت بالتأقلم التدريجي ومجاراة محيطها الكنعاني، الذي يمتاز بعدم تواجد دولة مركزية قوية فيه . فكنعان تتبع تارة لبابل عندما تكون بابل قوية ، او تتبع لمصر عندما تضعف بابل. و كانت كنعان تتميز ايضا بمدن وأمارات صغيرة عديدة، يديرها سكانها وأمراء محليون، ولم تعرف أمارة مركزية قوية فيها تجمع اماراتها بوجه كنعاني واضح. ,استغرق الأمر قرابة 600 عام منذ وصول قبائل العبرانية التوحيدية القادمة من مصر لتتمكن أخيرا من تاسيس أول أمارة محلية لها على يد الملك شاؤول، تلاه الملك داود ووصلت الأمارة قمتها اثناء حكم الملك سليمان قرابة عام 650 ق.م. ، وهي فترة ضعف بابل بحروبها مع الأشوريين، قبل ان تنقسم من جديد الى أمارتين بعد سليمان –يهودا والسامرة، ثم ليقضى عليهما نهائيا عام 589 ق.م. عندما استعادت بابل قوتها زمن ملكهم نبوخذ نصر الذي قام باسر وأرجاع التوحيديين الى وطنهم الأصلي في بابل .

والمهم هنا ان نتعرف على معالم الأله الأعلى وتعاليمه خلال مرحلتين : الأستقرار الأول لهذه القبائل ، ثم اثناء تاسيسها لمملكتها وخلال فترة حكم هذه المملكة التي دام عمرها قرابة 70 عاما. . حيث هدد الأله بضرورة عبادته وحده واقامة القرابين والطقوس لتبجيله، في تنافسه مع اله الكنعانيين «ايل» وشعبه ، وحدد والممارسات اليومية للمؤمن والحرام والحلال ،وغيرها من الفرائض وقواعد العبادة والسلوك والتي بلغ عددها 600 وفق شرائع الكتب المقدسة (التوراة والتلمود)، وأمر بطلب عدم الأختلاط والتزاوج بالقبائل والشعوب الكنعانية ، حيث سيسمح ذلك لألهم «ايل» بالتمدد اليهم، كما وارد في سفر (العدد والتثنية) ، ولكن عدوانيته أزدادت بعد أستقرار هذه القبائل في كنعان، حيث بدأ بلعنة القبائل الكنعانية وبدأ بالتحريض على غزوها قتالها بل واستعباد سكانها ان استسلموا والأستيلاء على أرضهم ، وأنزال غضب الرب وتشريع السبي وقتل البالغين بل وأبادة قبائل بكاملها مثل الأدوميون والعمونيون و المابيون الأموريين وغيرهم ، ولابد من الأطلاع على تعاليم الأله تلك المرحلة في كتاب الملوك «افرئييم» وكذلك في التوراة والتلمود . فألأله شرع لهم ذلك ،وكان أكثر قسوة من اي ملك غاز لهذه البلاد، حيث اباح من المظالم مالم يقم به ملوك الأشوريين والبابليين والمصريين الذين كانوا يكتفون بفرض الولاء والضريبة على هذه القبائل لتحصل مقابلها على الأمان والبقاء في ارضها . اما الأله التوحيدي الأعلى فكان يصر على سبيهم وابادتهم والأستيلاء على ارضهم وتشريدهم وانتقام الرب منهم بالأبادة,سبي نسائهم وأستعباد أولادهم ، مثلما تورد أسفار ألملوك.

ولا بد للباحثين في شؤون التوراة التعجب من تناغمها في القران الذي مجد الملوك الطغاة مثل شاؤول وداود وسليمان واعتبارهم أنبياء الله الصالحين وايراد أعجازاتهم كما هي في الأسفار والكتب اليهودية في حين ان همجية هؤلاء الملوك والأنبياء الربانيين أضحت معروفة من خلال الكتب المقدسة نفسها من خلال سفكهم لدماء السكان المحليين لكنعان بحيث يمكن تصنيفهم من أعتى الجلادين والسفاحين، وهو مادفع بعض الباحثين ان التناغم القراني مع التوراة في اظهار النقمة والتحريض على القتل باسم الأله الأعلى هو تأكيد على معالم الأله التوحيدي المشترك بين اليهودية والأسلام، حيث ان الأسلام قد كرر واكد جميع الصفات والمعالم الربانية اليهودية بتشريع الغزو والسبي والتهجير للأستيلاء على أراضي الغير وحب ألأنتقام وفق شرائع الأله الأعلى وقام النبي محمد بتطبيق هذه الشرائع المنسوبة لله على اليهود انفسهم وقام تهجيرهم وابادتهم من الجزيرة ، كما قام باستخدامها أيضا لأخافة قريش من مصير الأمم السابقة وما حل بهم من انتقام الرب على يد ملوك وانبياء اسرائيل.

لابد من الأشارة ان صفات الأله الموحد في الديانة التوحيدية اليهودية تختلف كثيرا عما نفهمه اليوم , فهو يفتقر الى أهم صفتين نعرفهما اليوم : الروحانية و «العالمية» أي «الشمولية لكل البشر» ، فكما ان لكل شعب اله ولكل قبيلة اله , فالأله التوحيدي خاص بهم فقط, والديانة االيهودية كانت شبه خالية من اية صفات روحانية للرب ، الذي على العكس تميز بروح الأنتقام والبطش من الأعداءوهذه الصفات التي ميزت»يهوا» او « ألاهيم» أو «الله» قد ثبتها الفكر التوحيدي اليهودي الأول واكتفى بها تقريبا منذ نشأته الى مرحلة السبي البابلي حيث بدات مرحلة تجميع وتدوين التراث التوحيدي اليهودي .

4. تدوين التوراة وأستخدام الاساطير الرافدية –الخليقة والطوفان –وتكرارها في القران

يرجع معظم المؤرخين ان الكتاب المقدس « التوراة» باسفاره الخمسة وكتاب التلمود قد تم تدوينهما في بابل بعد ترحيل معظم يهود أورشليم من قبل نبوخذ نصر إليها، ويعتقد ان ثلاثة اسفار (الخروج واللاويين والعدد) تم تكوينها وتداولها شفويا زمن الملوك، أي زمن شاؤول و داود وسليمان (750-700 ق.م.) وأما أسفار الخليقة والتثنية و الملوك فتمت اضافتهما بالكامل في بابل(قرابة 450 ق.م) . فسفر الخليقة أضيف لسد نقص قصة الخلق، باعتبار ان الله هو خالق للأرض والبشر، مجاراة لقصة الخليقة البابلية التي اطلع عليها مدونوا التوراة في بابل، وعلى رأسهم الكاهن عزرا. وفي سفر التثنية تدوين الوصايا العشرة للرب الى موسى لأعطاء البعد الأخلاقي-الروحاني لليهودية، اي بعد قرابة 800 عام من رحيل موسى، والتي لسبب ما، لم يحتاج اليها قومه الأ بعد وصولهم الى بابل . لقد وجد النبي دانيال والكاهن عزرا ،الذي قام بتدوين التوراة ، ان الديانة البابلية مليئة بالروحانيات والتعليمات الأخلاقية Codes of Conduct من الألهة لرعاياها، وهي مدونة بقوانين منذ زمن حمورابي (1750 ق.م.). وقام باقتباس قصة سرجون الأكدي (قرابة 2300 ق.م.) حرفيا لتدوين قصة التقاط موسى من النهر (حيث يبدو ان لاجواب لدى عزرا من اين اتى موسى الى مصر)، وكذلك أستخدم اسطورة الطوفان السومري ، حيث تم تبديل الأله السومري ، أنليل، الى يهوا، الذي قاد نوح ابونشتم الى النجاة ، وتم تحوير وتغييرمجريات الأسطورة لأظهار نقمة وغضب الرب وجبروته لقوم لم يطيعوه فاغرقهم. والطوفان في الأساس ظاهرة مالوفة سنويا في بلاد الرافدين، وتم تناولها في الأساطير السومرية، لمعالجة أشكالية الموت والخلود الذي اعطته الألهة لأبونشتم ، كما في ملحمة كلكامش الشهيرة ، واجابت عليه ان الخلود للألهة فقط, وليس للبشر. وقد اورد الباحثون الأكاديميون كيف واين استقى مدونوا العهد القديم «التوراة» من التراث وألأساطير السومرية والبابلية قصصهم وكيف قاموا بالتصرف بها وتغييرها لأظهار جبروت الرب وأنتقامه كما في قصة الطوفان(أنظر مثلا أعمال الأساتذة فراس السواح والسيد القمني في المراجع المرفقة) . ولنأخذ مثلا التحويرات الهامة التي قام بها التدوين اليهودي لأسطورة الخليقة السومرية ،والتي عثر على ثلاثة نسخ منها منتصف القرن الماضي، جنوب العراق وبابل ونينوى باللغة الأكدية، وهي تقريبا متطابقة فيما بينها، ومكتوبة باشعار جميلة تروي خلق الأرض من خلال النور الذي نشره أنليل (مردوخ في البابلية) ليحل محل الظلام بعد فصل السماء عن الأرض، وقام بخلق أدم من الطين وعجنه بدم الألهة «اي نفخ الحياة والروح من الألهة فيه» ،وقيام الرب بأهداء الأرض الخلابة لأدم (فهي هدية من الرب وليست منفى لأدم ولحواء كما يرد في سفر الخليقة)، وجعلها الرب أمانة عند أدم (الأنسان)، عليه الأعتناء بها والمحافظة عليها كأمانة الهية . وتحتوي الرواية السومرية على رومانسيات، فتقول: ومع شكر أدم للرب على الأرض، هذه الهدية الجميلة الخلابة، الأ انه، بقي يشكو من وحدته . وبينما كان يتمتع بالتطلع الى الجمال حوله، أنزلق ووقع في هاوية وأدت لكسر أحدى أضلاعه. عندها أخذ أدم يدعو الرب لأعانته كونه وحيدا ، فأستجاب الأله لدعوته وخلق له حواء ، وأخبره انها هي كفؤ لك وهي من يواسيك في وحدتك ويسعفك عند مرضك ولتحبا بعضكما بعضا ،وتنجبان لتعمرا الأرض بيتكما الجديد والدائم. قارن هذا النص الرافدي الأصيل بالقصة التوراتية التي جعلت من حواء غاوية (أنتقاما من عشتار الأله الأهم والأقوى في بابل وعليه كان لابد من تسويد صفحة المرأة في التوراة نكاية بها)، وأنها ورطت أدم بعدم إطاعة أمر الرب الذي نفاهما الى الأرض ، وكأن الأرض منفى وليست هدية وأمانة ربانية عند الأنسان. لاحظ أن خلق الرب لحواء كان لأسعاف أدم في وحدته، في حين يقول النص التوراتي أن الله أخذ ضلع أدم المكسور وأستخدمه لخلق حواء (اي تكريس التبعية وليس التكافؤ كما ورد في النص السومري –البابلي) ، وكأن الخالق كان ينقصه ضلع «قطعة غيار» فأخذه من أدم. أن ألأشارة لأعادة تدوين الأساطير السومرية-البابلية وفق نظرة وحاجة مدوني «التوراة» او العهد القديم، لأضفاء «العالمية عليها» مثل خلق الكون والأنسان ، كانت لمعالجة نقص في الأله القبلي المغلق لهم ، ربما عند محاججتهم للبابليين، أو لأظهار قدرة الههم ايضا ومجاراته بما سمعوه من قدرات الهة بلاد الرافدين، وقد تبنتها اليهودية وكررتها من بعدها المسيحية والأسلام كاملة وأصبحت هي السائدة اليوم. ولو تجرأ باحث على ان أنليل او انو أو مردوخ قد قاموا بهذا العمل قبل اله العبرانيين لأتهموه بالكفر والهرطقة والتهديد بالقتل، رغم الوثائق المدونة لهذه ألأساطيرالرافدية.التي سبقت هذه الأديان بفترة طويلة.

5. قراءة في صفات الرب التوحيدي الأول قبل ظهور المسيحية

يمكن الأستدلال ان اليهودية ،كأول دين توحيدي ، وورثته عنها المسيحية والأسلام قد رسمت معالم الرب التوحيدي «ألوهيم» أو «يهوا» أو «الله»:

- إنه الملك الجبار لهم الذي لايجاريه الجاه والقوة والبطش اي ملك او اية قوة أخرى على الأرض
- يفضل شعب على أخر، بأسم الأيمان والتوحيد به ،ويمكن نعت من خالف ذلك بالفاسق او النجس او الأمي
- زكى الغزو والأنتقام والقتل والسبي لمن لا يخضع له من الشعوب والقبائل والأفراد
- يسيطرعلى حياة من يتبعه من خلال شرائع محددة عبادته في كل دقيقة وذكره في كل تفاصيل حياته وما يقوم به
- يثيب بجنته في الأخرة لمن خضع له ، ويحرق في جهنم لمن يتهمون انهم غير خاضعين له وخارجون أو خرجوا عن عبادته وطاعته

أن هذا يناقض تماما مايمليه العقل من مبادئ الرحمة والروحانية والعدل الألهي والدعوة للتاخي الأنساني من حيث ان الله خالق البشر والشعوب جميعا ،فهم أبناءه ، وهو رحيم بهم دون تمييز، هو ليس بحاجة لما يدعيه التوحيديون من اليهود والمسيحيين والمسلمين ، من عبادات ، فهو ليس بحاجة لهم, بل هم في حاجة اليه، وان الله خلق الأنسان ليعمر الأرض ويتمتع بخيراتها، ويستمتع بها ، وأكرمه حريته في الأرض، لا ليستعبد فيها.

6. قراءة لحال الديانة اليهودية اليوم

تشكل اليهودية اليوم الدين السماوي الثالث انتشارا في الأرض ومعتنقيها منتشرون في كل بقاع الأرض تقريبا. ونتيجة للعادات والتقاليد اليهودية المتشددة ، انقسم اليهود الى قسمين : علمانيين ياخذون بثقافتهم مع ثقافة المحيط ولاعلاقة لهم بطقوس اليهودية المتزمتة، ومتدينون متزمتون ومتمسكون بالشرائع والطقوس والعبادات ، فهي اهم أهداف حياتهم ، حالهم حال المسلمين المتدينين ، رغم انهم مواطنون كبقية المواطنين في الدول التي يتواجدون فيها. ولم يشكل اليهود قومية كالأمم التي تمتلك اوطانا ، بل عاشوا في الغربة طوال الأربعة الأف سنة الماضية. فمنذ نشوء التوحيد الأول على يد ابراهيم في وادي الرافدين عاشوا غرباء دوما (عدا بلدان الشرق الأوسط وعن بلدهم الأصلي العراق حيث بشر ابراهيم بوحدانية الرب). وفي الغربة كانت الأمور صعبة عليهم، فكانوا دوما كبش فداء للحركات القومية والدينية المتطرفة على مدى التاريخ ، وخصوصا في أوروبا . أنهم الحلقة الأضعف، كونهم اقلية، ودون حماية، وبالتالي يسهل تلبيس اي تهمة للهجوم عليهم لتحقيق مصالح مالية أوسياسية أو قومية، فهم دوما كانوا متهمين كغرباء رغم انهم يتواجدون في اوروبا لقرابة الف عام. وتجاه هذا الوضع كان اليهود؛ وضمن مبدأ صيانة النفس؛ يلجؤون للتوفير وحجز مبلغ خاص « لليوم الأسود» يشترون به حياتهم عند الشدائد. وضمن نفس المبدأ كان عليهم ان يمارسوا مهنا حرة، لأن توظيفهم غير موثوق به ضمن التمييز ضدهم. وعموما لو القينا نظرة الى تعامل المجتمعات مع اليهود عبر التأريخ لوجدنا أن المجتمعات الأوربية المسيحية كانت الأكثر تمييزا وعنصرية ضد اليهود، لأن الكنيسة لم تبرأهم من دم المسيح الا مؤخرا(فقط عام 1986)، وهم كأناس شرقيي الدين والأصول، بقوا مهددين بالنفي حتى ولو عاشوا مئات السنين في اي بلد أوربي. عكس الحال في المجتمعات الأسلامية وخصوصا في الشرق الأوسط ، فهم ليسوا غرباء ، بل كانوا دوما جزءاً من النسيج الأجتماعي والثقافي الأصيل للمنطقة ، بل وكانوا محل الثقة عند السكان المحليين كما في العراق او مصر او المغرب، ولم تعرف هناك مذابح او تشريد او تمييز عنصري ضدهم، بل واحيانا كثيرة ماكان اليهود في مواقع هامة في السلطة و الأدارة.

ان اليهودية اليوم، كديانة، هي في أضعف حالاتها عبر التاريخ، حيث تشكل نسبة المتدينين حتى داخل أسرائيل 11% فقط ، اي هؤلاء الذين يلتصقون بالتقاليد الدينية اليومية لليهودية ، في حين يشكل القوميون اليهود النسبة الأكبر داخل اسرائيل وفي أرجاء العالم ، وهم يؤمنون فقط انهم قومية متميزة ، وياخذون بالعلمانية في حياتهم ، اي انهم قوميون يهود ولكنهم علمانيون. وتشكل الليبرالية تيارا واسعا بين المثقفين اليهود وهم يقفون ضد التيار

القومي والديني في ان واحد ، فهم يعون ان التيارات الأيديولوجية القومية او الدينية هي داء للشعوب وليست دواء لمشاكلها . ولا بد من الأشارة هنا ان اكثر من 85% من اليهود في أسرائيل يقفون مع علمانية الدولة لا لسبب سوى معرفتهم التاريخية ان العلمانية تعني بناء دولة قوية وأقتصاد مزدهر كونها تقوم بتفعيل العلم والعقل وتنظيم المجتمع – فهي عنصر قوة ، ولولا ذلك، اي لو اخذت أسرائيل بأيديولوجية وشرائع موسى او التلمود ، لوجدت حالها مثل كثير من الدول العربية اليوم.

واليوم وقع العرب واليهود معا في مأزق قيام أسرائيل ، وتبني الأخيرة لسياسة قومية عنصرية ذات أصول أوربية، اي الصهيونية . فبدل العيش الطبيعي مع سكان هذه المنطقة، انبرى اليهود الأوربيون القوميون الذين نزحوا الى فلسطين في القرن العشرين بممارسة عقدة التمييز القومي، التي كانت تمارس ضدهم أساسا، ضد السكان المحليين في فلسطين، وهو مايذكر بالقول المأثور «غالبا ما يستخدم الضحية اساليب الجلاد». والواقع ان التطرف الأوربي في القرن التاسع عشر والعشرين ولد تيارين عند اليهود : التيار الأممي والذي كان يرى ان انهاء التمييز لن يتم الأ على اساس فكر اممي الطابع كالفكر الماركسي والليبرالي، ولهذا نرى اغلب رواد الفكر الأنساني المتحرر كانوا من اليهود؛ والتيار الثاني ولد التطرف القومي اليهودي الذي أسس الحركة الصهيونية القومية المتطرفة، على غرار مثيلاتها الأوربية في النصف الأول من القرن العشرين، وهكذا خلق قيام اسرائيل عقدة نفسية حديثة العهد بين اليهود الذين عاشوا مواطنين عاديين على مدى الاف السنين مع العرب والمسلمين لتصبح واحدة من اكثر العقد تعقيدا اليوم . والمستقبل لن يجد حلا لهذه المشكلة الأ ان تتخلى اسرائيل عن عقدتها وعقيدتها القومية الصهيونية وتبنى الليبرالية وتعترف بالشعب الفلسطيني ودولته وحقوقه وتعتذر لهم وللشعوب العربية عن ممارساتها العنصرية التي ورثتها من الفكر القومي الأوربي المتطرف، ومعها قيام انظمة عربية ليبرالية تتقبل منطق التعايش بين العرب واليهود ضمن أهداف انسانية عليا ؛ ويبدوا أن لا هذا ولا ذاك سيتحقق في القريب المنظور .

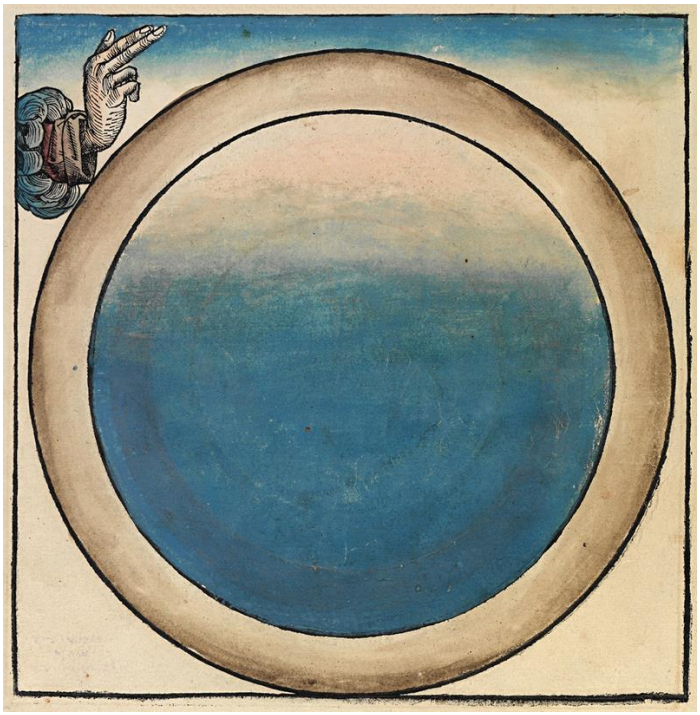

First Day of Creation (from the 1493 *Nuremberg Chronicle*)

اليوم الأول للخليقة- فصل الرض عن السماء - لوحة مؤرخة عام 1493 في متحف مدينة نورمبرج –المانيا

The Creation of Man by Ephraim Moses Lilien, 1903.

اليوم السادس –خلق الأنسان (لوحة مؤرخة عام 1903 للفنان الفرنسي موسيه ليليان)

Ancient Assyrian statue currently in the Louvre, possibly representing Gilgamesh
تمثال وجد في نينوى يعتقد انه يمثل كلكامش ، محفوظ في متحف اللوفر في باريس

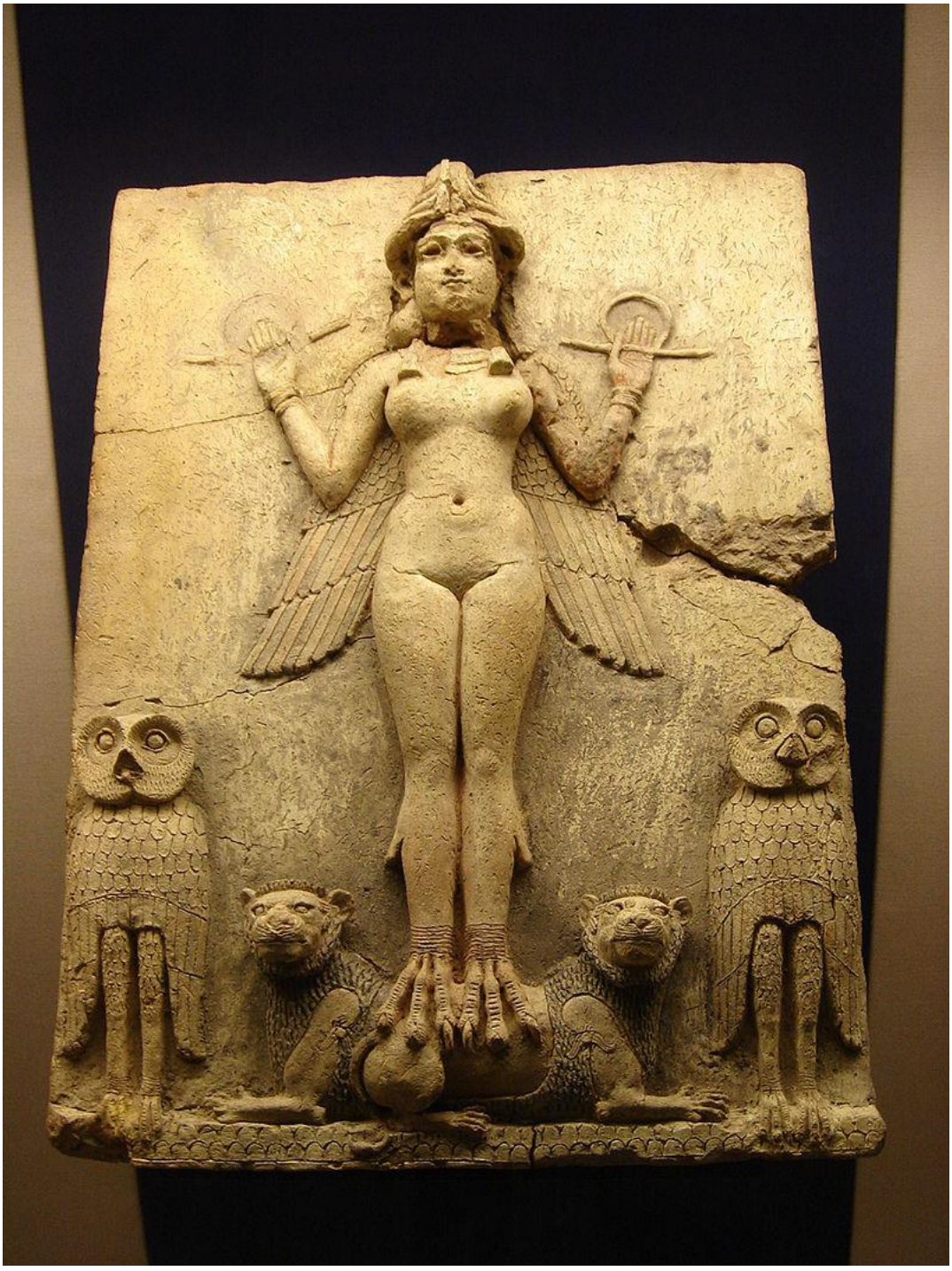

The Queen of the Night relief. The figure could be an aspect of the goddess Ishtar, Babylonian goddess of sex and love, 19th-18th century BCE (Room 56, British Museum, London)

نصب في المتحف البريطاني يعتقد انه يمثل عشتار الهة الحب والجنس والخصوبة والولادات والمحاصيل الزراعية وقد حاربتها اليهودية ومن بعدها الديانات التوحيدية من خلال تصوير المرأة اقل منزلة من الرجل، وبالتالي لايمكن أن تكون المرأة الها ولا حتى كاهنا ، فعشتار هي اقوى الهة بابل واقربهم الى الناس في حياتهم

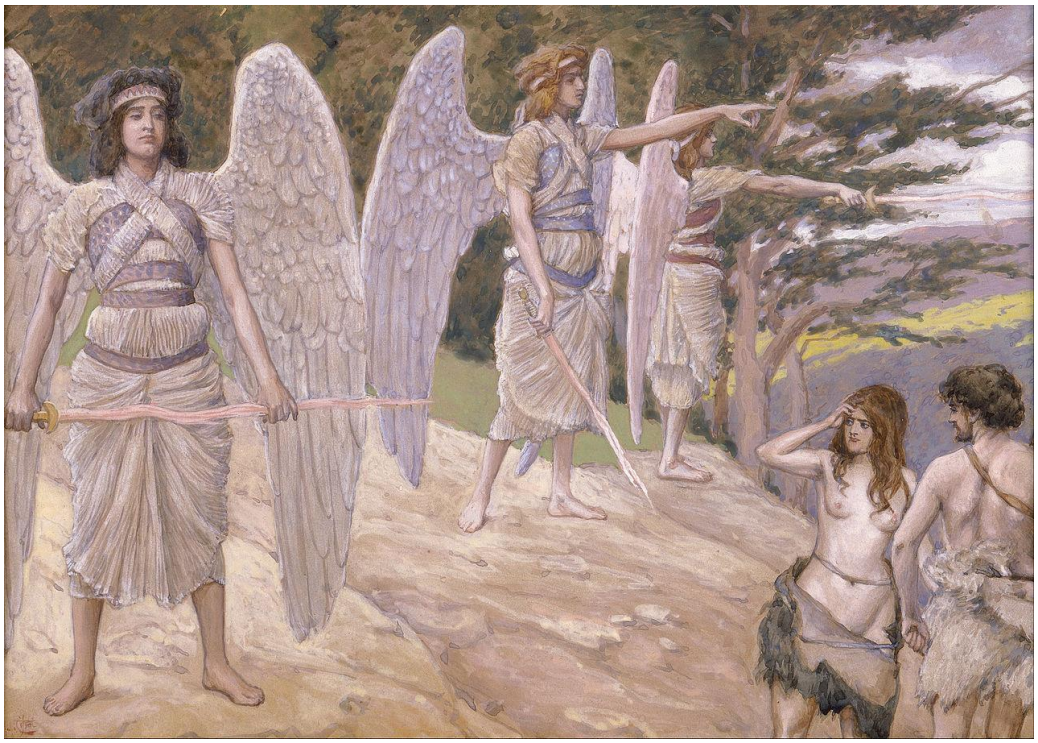

Adam and Eve Driven From Paradise by James Tissot (French), c. 1896-1902, Google Art Project.jpg

طرد أدم وحواء من الجنة الى ألأرض وفق الرواية التوراتية ،للفنان الفرنسي جيمس تيسوت.عكسه تقول به القصة البابلية ان الرب قد أهدى الأرض لأدم ووضعها امانة عنده ولم تكن عقابا له ، وان حواء خلقت بعدما شكى للرب وحدانيته .لاحظ الفرق بين الروايتين وأيهما القرب للخالق.

Noah's Ark (1846), by the American folk painter, Edward Hicks.

قصة نوح التوراتية كما يصورها الرسام الشعبي الأمريكي أدوارد هيكس

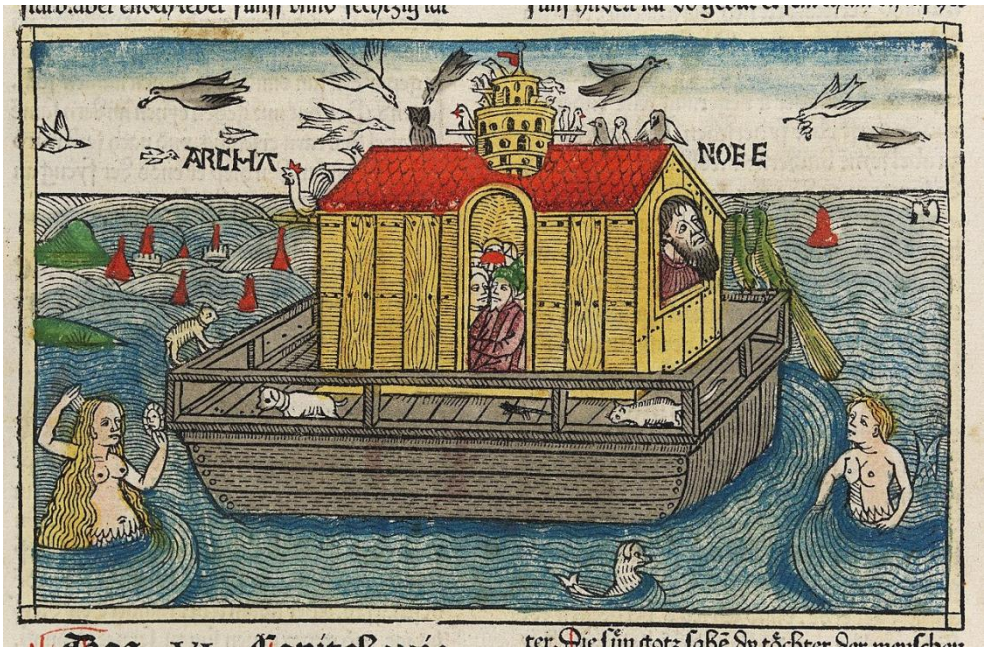

A woodcut of Noah's Ark from Anton Koberger's German Bible

سفينة نوح وفق الرواية التوراتية مجسمة على الخشب مصورة من أحد نسخ التوراة بالألمانية للفنان أنتون كوبيركر-لاحظ زوجة نوح وولده يغرقان وفق عقاب الرب وهو عقاب توراتي لمن لاينصاع للأب

Neo-Assyrian clay tablet. Epic of Gilgamesh, Tablet 11: Story of the Flood. Known as the "Flood Tablet" From the Library of Ashurbanipal, Nainava (today Mosul in Iraq)

لوح طيني يدون ملحمة كلكامش عثر عليه في مكتبة أشور بانيبال –نينوى (الموصل حاليا)

الباب الثالث
التوحيد المسيحي ومعضلة تزاوج الروحانيات بالسلطة

1. قراءة في ظهور المسيحية

ظهرت المسيحية لملئ فراغين كبيرين في الدين التوحيدي الأول، اليهودية، وهما : افتقارها للجانب الروحاني التسامحي ؛ والأنغلاق على الذات. حيث صورت الأله الأعلى كقوة جبارة تبطش بالملوك والملل الأخرى (بابل وكنعان ومصر) ، وتفتك بالبشر خارج القبائل التوحيدية اليهودية؛ ولم تقبل فكرة تعميم الألوهية والرحمة الربانيية على كل البشر . جاءت دعوة يسوع المسيح لتملأ هذين الفراغين، فجعل يسوع الرب الأعلى عالميا، اي اله كل البشر، وسن الروحانية والرحمة الربانية كاحدى أهم الصفات الألهية ،بعد ان كانت في اليهودية مقتصرة على القوة ألانتقامية والعقاب الرباني لكل من لايطيعه ويقوم بالطقوس طوال اليوم وفي كل تفاصيل حياة الفرد. وعليه فالله الذي نعرفه اليوم بروحانيته وحكمته ورحمته وغفرانه التي تلهم الأنسان تعود للأضافات التي قام بها المسيح لمفهوم الرب البهودي الأول، القائم على القوة والجبروت والأنتقام؛ حيث ينسب للنبي موسى قوله « الرب رجل حرب» [1].
لم يدخل المسيح في أي صراع سلطوي ولم يسع لأقامة دولة أو سلطة أو إمارة ،ولا لأقامة جيش بل اكتفى بضرب المثل الأعلى في السلوك الروحاني الذي يريده الله من البشر والذي يقوم على التسامح وقبول الأخر ونصرة ومساعدة الضعيف وغيرها من القيم الأخلاقية التي نسبها المسيح قيما الهية عليا. ويمكن فهم اصل ونشوء قيم الروحانية العالية و الرحمة للمسيح عند مراجعة الطفولة القاسية التي عاشها في وسط شرقي محافظ كان معاديا له (كونه متهم بانه أبن غير شرعي) ، ولأمه مريم العذراء، حيث يحرم الأنجاب من غير زواج شرعي، حتى ولو كان ربانيا، كما تقول به المسيحية والأسلام. وقد ساهم هذا العداء والنبذ الأجتماعي له ولأمه في تنمية بذرات الحاجة للرحمة والتسامح واعتبارها صفات ألهية يجب ان تضاف لتعاليم الرب الذي يجب ان يكون رحيما بكل البشر. ولايمكن، كذلك، تجاهل دور الراهب يوحنا المعمدان، أحد اقرباء والدته، في تطوير الأفكار الأصلاحية والروحانية للمسيح، فهو قد سبق المسيح في التمرد على الكهنوت اليهودي الحاكم، وهو من فتح الدين لكل سكان كنعان ليشملوا برحمة الله من خلال تعميده لهم في نهر الأردن ،رغم انهم ليسوا يهودا، وهذا تمرد واضح على تعاليم الدين وكهنته، وهو نفسه الذي قام باعلان وتتويج يسوع انه هوالمسيح المنتظر والمخلص الذي كان ينتظره الفقراء والمحرومين في اورشليم حيث تم تزاوج سلطة الكهنوت و سلطة الثروة فيها. وجرى وباسم الرب ممارسة الجشع وتبريره دينيا باعتباره رزقا من الله. وخلال خمسة سنوات فقط بين تتويج يسوع مسيحا مخلصابعمر 28 عاما، وصلبه بعمر 33 عاما بتحريض من الكهنوت اليهودي، استطاع المسيح ان يحدث انقلابا جوهريا في الديانة اليهودية السائدة في كنعان- حيث اضاف لها ماكانت تنتقصه :الروحانية والعالمية (اي شمول رحمة الرب لكل البشر)، وابطل الكثير من الشرائع السائدة في اليهودية.وقاد ايضا حركة اصلاحية أجتماعية صاغ محتواها المسيح: أن الله ينبذ الثراء ويريد من الأغنياء التنازل بكل او جزء من ثرواتهم للمعوزين والفقراء وسيعوضهم الرب عنها في الملكوت الدائم.وقال مقولته الخالدة الواردة في انجيل متي « لأن يدخل الجمل من سم الأبرة ،أسهل من دخول الغني ملكوت السماء» و« تعالوا الي ياجميع المتعبين والمثقلين بالأحمال وانا اريحكم أحملوا نيري عليكم وتعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة نفوسكم». ومقولته الأخرى في انجيل لوقا « الويل لكم أيها الأغنياء فقد نلتم عزائكم الطويل بأيها الشباع سوف تجوعون» .لقد كانت رسالة يسوع موجهة بالدرجة الأولى الى الشرائح الأجتماعية المظلومة والمضطهدة والى المعذبين في الأرض . وكانت الشرائح الدنيا من المجتمع هي التي استحوذت على أهتمامه .
هكذا نشأت المسيحية ولاقت رواجا عظيما بعد صلبه . وتطورت الروحانيات المسيحية خلال فترة 300 عام من دعوة المسيح من الأرهاب الروماني عليها، وبالرغم منه أنتشرت في معظم اجزاء الأمبراطورية و أنشات الأديرة الروحانية في ربوع بلاد الشام وبلاد الرافدين ومصر واسيا الصغرى واليونان, أي اغلب بلدان حوض البحر المتوسط والمناطق المحيطة بها ، بينما بقيت اليهودية التقليدية منكفئة على نفسها في قبائل كنعان. أنها المرحلة الروحانية من تطور المسيحية التي استطاعت ان تروج لدين يشمل برحمة الرب كل الأجناس وكل الأقوام وتطالب بالعدل الرباني الذي نادى به المسيح والأخذ بالرحمة والروحانية الألهية.

==========

(1) أنظر «قصة الحضارة» ، وول ديورانت ، ج2 ص240.

2. تجديد المسيح للفكر التوحيدي لم يصل حد الطلاق مع التوحيد اليهودي

قامت تعاليم ودعوة وسيرة المسيح نفسه على خمسة ركائز أصلاحية:

1. أن الله لكل البشر ولهم بركته ورحمته وغفرانه مهما كان جنسهم وقبيلتهم وليس لأتباع التوحيد اليهودي فقط
2. نقض اقتصار مفهوم الأله على الجبروت والقوة والأنتقام
3. الله رمز روحاني للمحبة والرحمة والتسامح الأنساني لأنه وضعها في لبنة الأنسان نفسه
4. انتقاد الكهنوت الحاكم والشرائع المتشددة التي أقاموها باسم الأله الموحد
5. الله ينبذ تراكم الثراء الفاحش وينبذ أستغلال الأنسان لأخيه الأنسان .

والواقع ان هذه الركائز الخمسة هي نسف حقيقي لركائز التوحيد وشرائع الأله في اليهودية ، فالمسيحية دين جديد تماما قائم بذاته من خلال دعوات المسيح هذه . ولكن المأزق، الذي يبدو ان المسيح لم يكن يدركه وقتها، او ربما خطأ بما نسب اليه، انه قال بأتباع الكتب و النواميس السابقة ، فهو لم يأت لينقضها ، في حين انه نفسه قد قام بنقضها ، والغى تعاليم كثيرة في هذه النواميس.
ان مقولة المسيح الأخيرة، رغم التشكيك في صحتها، ربما قد أسئ تأويلها و تم أعتمادها كاملا ،واصبح التناخ اليهودي، وهي الأسفار الخمسة للتوراة ، يدعى في المسيحية بالعهد القديم ، ومادونه تلاميذه او اتباعه في فترة لاحقة من سيرة المسيح وأقواله في أناجيل «بالعهد الجديد» ، وهو تناقض فاضح حقا، فكيف يمكن الجمع بتصور اله توحيدي واحد يدعو للحرب وللأنتقام من الأعداء في العهد القديم، وهو نفسه الأله يدعو للعفو والتسامح والرحمة بنفس الوقت لكل البشر، هل غير الرب رأيه؟ . أن هذا هو ماجعل من المسيحية مطاة بيد الملوك والغزاة فهم يجدون في العهد القديم مايشفي غليلهم ، ويمارسون الأضطهاد دون أتهام بالعودة او الردة عن المسيحية، وهذا ماحصل طوال تاريخ المسيحية على مدار1300 عام حتى الوصول الى عصر النهضة الأوربية.

3. زواج روما الأنتهازي بالمسيحية وتراجع أوربا الى النوم العميق لألف ومئتي عام

أمام انتشار المسيحية الواسع خلال أول 300 عام من تتويج المسيح والذي وصل لأرجاء واسعة من الأمبراطورية الرومانية حول حوض البحر المتوسط وأسيا الصغرى وكذلك في بلاد الرافدين التي كانت تحت سيطرة فارس، أضطرالأمبراطور قسطنطين عام 306 بعد الميلاد الى أعلان تبني روما للمسيحية ، وكان ذلك اضطرارا لأنتشارها الهائل بين رعايا الأمبراطورية، وليس هبة ضميرية للقيصر وقادته، وهو مايعده المؤرخون اكبر زواجا انتهازي في التاريخ يتم بين أكثر التعاليم أخلاقية ودعوة للتسامح واكبر قوة عسكرية تمثلها روما التي بنت مجدها الأمبراطوري بقوتها العسكرية وفتوحاتها التي سيطرت على كل بلدان البحر المتوسط اي كل العالم القديم المعروف انذاك .
على ان تبني روما للمسيحية لم يحولها الى امبراطورية أخلاقية بل وقعت روما والمسيحية معا في الفخ بمزج الدين والدولة معا ، حيث تم ارتكاب أبشع الجرائم باسم الله وباسم يسوع .ومع تبوء المسيحية لصرح السلطة في روما لم تعد أمينة لتعاليم المسيحية الروحانية والأخلاقية ، بل صارت أداة بيد الملوك والبابوات والكهنة لتمرير مايرمون من حروب وصراع على الثروة والنفوذ بأسم الله وألأبن يسوع والروح القدس . وتم نشر المسيحية بالسيف على أتباع الديانات الرومانية واليونانية القديمة .

فهاهو مثلا لقسم الولاء الذي يجب ان يردده السكان ممن مسكوا بتهمة عدم الأنتماء للمسيحة في زمن مبكر وهو زمن قسطنطين، الذي هو نفسه تحول للتو للمسيحية ، حيث عملت عساكره بالسكان الغير مسيحيين بحد السيف أذا لم يرددوا قسم الولاء له ولله وليسوع «نقسم ونعترف بأنك الإله الواحد ونعترف بأنك انت ملكنا , ونلتمس معونتك , وبنعمتك أنتصرنا , وبك نحن أقوي من أعدائنا . نقدم لك الشكر من أجل نعمك الماضية , ونتكل عليك من أجل البركات المستقبلية . نتضرع إليك ونتوسل طويلاً أن تحفظ لنا إمبراطورنا قسطنطين وأنجاله الأتقياء سالمين منتصرين».

,خلال قرابة الف ومائتي عام بين تبني روما للمسيحية حتى بداية حركات الأصلاح الفكري في القرن السادس عشر هيمنت الكنيسة على مقاليد الأمور في اوروبا وسيطرت على تفاصيل حياة الناس، فلها يخضع الملك والأمير والفارس والفلاح بوقت واحد. وأضحى الكهنوت ينصبون الملوك , ويصدرون الفتاوى بشن الحروب ، وحرق او معاقبة الفلاسفة والعلماء و المفكرين تحت تهمة الهرطقة «الكفر» بالتعاليم الألهية.
ومن أوائل الفتاوى التي اصدرها الكهنوت كانت زمن قسطنطين نفسه الذي اصدر أمرا بحرق أريوس، وهو القديس ألأسكندراني المصري الذي صرح بإيمانه بأن المسيح نبي ورسول ومخلوق وليس إله ،فحتى الكلمة مخلوقة ،وليست أزلية كأزلية الله . حيث اصدر الأمبراطور المتحول للتو للمسيحية تعميما سنة 332م " إذا اكتشفت رسالة كاتبها أريوس فليكن مصيرها النار .. وإذا قُبض على أي شخص يخفي كتاباً لأريوس ولا يظهره ويحرقه على الفور , فعقابه الموت , وتنفذ فيه العقوبة فور ثبوت الجريمة " *.
وكان اول هجوم للمتهوسين المتدينين الجدد بالمسيحية قد انصب على الفلاسفة اليونان وتلامذتهم باسم محاربة الهرطقة وكل مايخالف تعاليم الرب من خلق وعلم من وضع العقل . واكبر هجوم شنوه كان على مركزهم الجديد ، الأكاديمية العلمية والفلسفية في الأسكندرية، ولجأ اليها الفلاسفة اليونان وتلامذتهم هربا من الرومان ، وتم حرق الأكاديمية و بعض طلبتها , بينما استطاع الأخرون الهرب مع مااستطاعوا حمله من كتبهم واللجوء لملك فارس ، نكاية بالرومان أعداءه ، الذي وفر لهم الأمان وجو الحرية للأستمرار بالبحث والعلم وجعل مدينة «نيسابور» ، القريبة من البصرة وعبادان اليوم، مركزا لحرية الفكر والعقيدة. وفي نيسابور نفسها تم ترجمة أعمال الفلاسفة العظام مثل افلاطون وارسطو وعلوم الهندسة لأقليدس وعلوم الطبيعة الى الأرامية-السريانية، التي كانت لغة العلم والتدوين في بلاد الرافدين وفارس. وهكذا تم إنقاذ الأعمال الفلسفية اليونانية ولو تم حرق الكتب اليونانية على يد المتدينين المهوسين وبتحريض من الكهنوت المسيحي الجديد في روما، لخسرت البشرية أعظم كنز معرفي ساهم في تطورها اللاحق في المشرق بعد خمسة قرون، والمغرب، واوروبا عصر النهضة بعد اكثر من 1200 عام.
و بأسم الدين والروح القدس تم شن الحروب الصليبية بفتاوى من البابا تلك الحروب التي قتل فيها مئات الألاف من البشر باسم المسيح . ولعل ماقام به فردناند وايزابيلا في الأندلس في القرن السادس عشر يعتبر من اكثر الموجات شهرة في الأرهاب الديني والعرقي وذلك بعد طرد العرب والمسلمين منها، حيث انتقم فردناند من اليعاقبة المسيحيين الشرقيين بابادتهم وكان ذلك بفتوى من البابا بوجوب حرقهم وقتلهم بالجملة، وبنفس هذه الفتاوى تم ممارسة نفس الفعل مع اليهود و تم ابادة أعداد كبيرة منهم في الأندلس حتى توصلوا مع فردناند لأتفاق يقضي بشراء حياة من استطاع منهم دفع الفضة والذهب مقابل السماح لهم بالهجرة من الأندلس باتجاه شمال اوروبا ، او باتجاه العرب والمسلمين في شمال افريقيا الى المغرب وتونس (وبعدها اصبح تقليدا أن يحرص اليهودي أينما تواجد في بلاد اوروبا أن يحتفظ بقروش بيضاء لشراء حياته من الموت في أيام سوداء) .
ومن اواخر المذابح الكبيرة المعروفة باسم نشر المسيحية كانت بين قبائل الهنود الحمر في امريكا الجنوبية حيث تم ابادة قبائل المايا بالكامل باسم يسوع رمز المحبة والرحمة والأخاء الأنساني.
==========
(*) أنظر تاريخ الكنيسة ، جون لوريمر، ج1-5 ، دار الثقافة ، 2001

ولعل الدرس الكبير الذي تعلمته البشرية من الأرهاب الديني الذي ارتكب باسم اكثر التعاليم الدينية تسامحا، ان الدين أذا تداخل بالسلطة حل الأرهاب ويتم باسم الله وقديسيه والمتحدثين بأسمه من الكهنوت ورجال الدين ممارسة ابشع الجرائم الأنسانية. وإذ قالها المسيح واضحا « ما لله هو لله وما لقيصر هو لقيصر» أصبح ما لله وما لقيصر معا بيد الكهنة وماتت أوروبا سريريا بدمج الدين والدولة ومنها حلت نكبات وجرائم حرقت البشر والأرض والحرث والنسل وقوضت حضارة هذه القارة لألفي ومائتي عام.

4. عصر النهضة و بدايات فصل الدين عن الدولة

بدأ الأصلاح الديني للمسيحية في القرن الخامس عشر على يد كهنة متنورين وفلاسفة وشعراء ورسامين وتجار ورحالة نادوا بحرية الفكر وتحرير عقل الأنسان والأخذ بفردانية الدين والحد من سطوة مؤسسة الكهنوت على الناس باسم الله ،التي احتكرت الأله لها ،وتنطق باسمه ،وحتى تشرع القتل لمن يخالفها بدعوى الهرطقة والكفروالسجن لمن يخالفها الراي.
كان الغزو الثقافي لأوروبا قد بدأ من الأندلس بعد ترجمة أعمال الفلاسفة اليونان من العربية الى اللاتينية التي جرت فيها ، ومعها ترجمات لأعمال عصر التنوير الأسلامي لأبن رشد وأبن سينا والخوارزمي وجابر ابن حيان والفردوسي وأبن الهيثم وغيرهم الى اللاتينية . إن هذا البذر بدأ يعطي ثماره ، حيث انبهر دارسي اللاهوت الأوربيين في ايطاليا والمانيا وفرنسا، وخاصة الفئة المتنورة منهم، بقوة الفكر العقلاني في الأندلس وبأعمال أرسطو وافلاطون وأبن رشد وأبن سينا مقارنة مع الجامد من العقائد الدينية البحتة وما يلحقها من خرافات مبنية على الغيب، وعلى شرائع وفتاوى الكهنوت ومايستصدرونه باسم الله من تعليمات وقوانين جائرة ، وعلم خرافي. ولعل هذه الفئة من الكهنة المتنورين قد أدلو بدلوهم وبدؤا بالتمرد وطلب الأصلاح، سواء إصلاح المفاهيم في الفكر الأيماني، او اصلاح وتقييد السلطة الكهنوتية نفسها المتمثلة بسلطة روما الكنسية على كل اوروبا . لقد أنطلق الإصلاح أولا من داخل الكنيسة نفسها ، ذلك أنّ المصلحين الدينيين كانوا رهبان متنورين، أضافة الى اللاهوت ،فهم تابعوا دراسات جامعية التي بدأ تأسيسها تاثرا بالأندلس وبغداد، وتلقوا تكوينًا جديدًا يقوم على ماأطلعوا عليه من القانون والفلسفة والطبيعيات والرياضيات. من الكتب المترجمة الى اللاتينية ، وهذا ما أهَّلهم لتفسير اللاهوت برؤية جديدة ودعوة إلى المراجعة والإصلاح. وساهمت الجامعات التي تاسست في البلدان التي كان ملوكها يميلون للأنفصال عن الكنيسة مثل انكلترا والمانيا وسويسرا وحتى فرنسا في هذه النهضة. يذكر من بين هؤلاء الكهنة الأصلاحيين الإنجليزي جون فيكليف (ت 1384) الذي كان أستاذًا بجامعة أكسفورد، والتشيكي جون هوس (ت 1415) الذي شغل منصب عميد كلية اللاهوت بجامعة براغ، والألماني مارتن لوثر (ت 1546) الذي درَّس بجامعة فيتنبورغ، والفرنسي جون كالفن (ت 1564) مؤسس جامعة جنيف [1].
ومعلوم أنّ هؤلاء المثقفين والمصلحين كان لهم تأثير بالغ في الكثير من الطلاب والرهبان في كليات اللاهوت التي اشتغلوا فيها، وكان محور تعاليمهم الأصلاحية؛ وخصوصا المذهب اللوثري الذي يقوم على ثلاثة مبادئ:

- فردانية العلاقة بين الرب والأنسان ولا توجد حاجة لوسيط مثل الكهنة وسلطة مثل كنيسة روما
- حق الفرد في تأويل النصوص المقدسة وفهمها ولايحتكر أحد الحقيقة الألهية (ولهذا فقد تمت ترجمة الأناجيل من اللاتينية الى الألمانية وألأنكليزية والهولندية)
- الكهنة مسؤولون فقط على تدبير شؤون الكنسية ولايحق للكنسية التدخل في حياة و شؤون العوام.

وأمام هذه الأفكار الثورية لرواد الأصلاح الديني قامت الكنيسة بأصدار فتوى بحرق الكاهن جون هوس، ونجا الفرنسي جون كالفين بهربه الى سويسرا، واحتماءه بأميرها الذي كان يريد التحرر من سلطة الكنيسة، كما ونجا مارتن لوثر باحتماءه واحتضانه من الأمراء الألمان الذين كانوا يرون في تعاليمه تحررهم من سيطرة البابا. وكانت بريطانيا قد استقلت فعليا عن كنيسة روما زمن هنري الثامن منتصف القرن الخامس عشر .أن تأسيس الدول القومية في اوربا وتكريس الفردانية للمؤمن مع الرب كمبدأ تعود بجذورها لحركة ألأصلاح الديني والفكري الذي قام به هؤلاء الرواد الأوائل.

==========

(*) أنظر كتاب د. حبيدة (محمد)، **تاريخ أوروبا: من الفيودالية إلى الأنوار**،، الرباط، 2010.

وكان العامل الثالث الذي ساعد حركة الأصلاح الديني هو أختراع المطابع ونشر الصحف والملصقات المبشرة بالأصلاح الفكري والديني والتي شكلت بداية لأنتشار التعليم والجامعات خارج جدران الكهنوتية، حيث تم التعرف الى علوم الحساب والفلسفة والطبيعة والطب التي كانت من قبل تحت سيطرة الكهنوت. وبدأ تحرير العلم والتعليم وفصله عن الدين والكهنوتية ،وبها بعيدا عن السحر والشعوذة. ولعل كتب مثل القانون في الطب للشيخ الرئيس ابو علي ابن سينا والجبر والمقابلة للخوارزمي وصناعة الكيمياء لجابر ابن حيان التي ترجمت في الأندلس من العربية؛ وطبعت ونشرت باللاتينية ؛ كانت قد مهدت جميعها لعقلنة العلوم تزامنا مع حركة الأصلاح الديني التي مافتئت ووجدت توسعا لها حتى انتشرت خلال القرنين الخامس والسادس عشر بشكل واسع في اجزاء هامة من أوروبا ، وتم تبني اللوثرية البروتستانتية المتحررة من قبل ملوك كل من انكلترا وألمانيا وهولندا وسويسرا والدانيمارك وأعلنوا شق عصا الطاعة على بابا الفاتيكان وخروج بلدانهم من تحت سيطرة الكنيسة ؛ أما فرنسا فقد بقيت مطيعة لعرش الكاثوليكية وطبق ملكها فتوى البابا بجوازحرق و قتل اي بروتستانتي، وتم بالفعل تصفية الالاف منهم في باريس ومدن فرنسا وأيطاليا الأخرى بفتاوى من البابا.
أن الأعتراف بفردانية العبادة وبحرية الفرد في التأويل العقلي وفهم مايريده الله ومحتوى النصوص المقدسة دون سلطة الكهنوت على الفكر هي ثورة حقيقية فتحت الباب واسعا في القرون التالية لدخول عصر النهضة ؛ فبدأ الرسامون يرسمون صورا للناس والطبيعة بدل تصويرهم الكهنة والقديسين والملوك؛ ونسج الشعراء والمسرحيون أعمالا يمجدون فيها الحب وحياةالأنسان العادي بعد ان كان محصورا على سير الأنبياء والأتقياء .
وأنتقل الأصلاح الديني الى الأصلاح السياسي والمناداة علنا بفصل الدين عن الدولة في القرن الثامن عشر وقد مهد له ثلاثة من رواد الفلسفة : سبينوزا الذي مهد لوضع القوانين العقلية بدل الكنسية لتنظيم المجتمع ومونتسيكو الذ نادى بتقسيم السلطات الى ثلاث مستقلة لا تجمع بيد واحدة؛ وجان جاك روسو الذي مهد لتحويل السلطة الى متعاقد مع المواطنين لتقديم الخدمات لهم وفق « العقد الأجتماعي» ، وفولتير الذي قام بالضربة القاضية للفكر الديني باتباعه اسلوبا ساخرا في نشر أفكاره التهكمية والتي احبها العامة وأظهر سخف القداسة وفساد البابوات والكهنة . وأثمر عصر النهضة والتنوير وافكار الفلاسفة بفصل الدين عن الدولة ومنها شهدت اوروبا صعودا كالذي نراه باضطراد على السلم الحضاري بعد ان كانت مرتعا للركود والشعوذة والتخلف بسبب السيطرة الدينية على السلطة وتجميد العقل على مدى اكثر من الف عام *.

أن التحول للعلمانية قد جرى على يد جيل جديد من الفلاسفة وقادة الحركات الأجتماعية وكان إصلاحا راديكاليا ادى الى الثورة الفرنسية عام 1789 والذي اسس الجمهورية كبديل ليس لسطة الكنيسة فقط، بل حتى لسلطة الملوك، واسس اول دولة علمانية في التاريخ ، وفي نفس الفترة تقريبا تم تاسيس دستور علماني على غراره في العالم الجديد، أمريكا ، وبدات العلمانية تغزو اوروبا لتقيم دولا حديثة اخذت بالعلم والعقل وفصل الدين عن الدولة لتزدهر الحضارة والمواطنة والحقوق والصناعة والعلوم، وكل ذلك جرى بعدما تم حجر الكنيسة في معابدها ليصلي بها من يشاء ولكن حق لهم بالتدخل في شؤون المجتمع.
======
*أنظر: ويل ديورانت «قصة الفلسفة» من أفلاطون الى جون ديواي –بيروت وبغداد 2005.

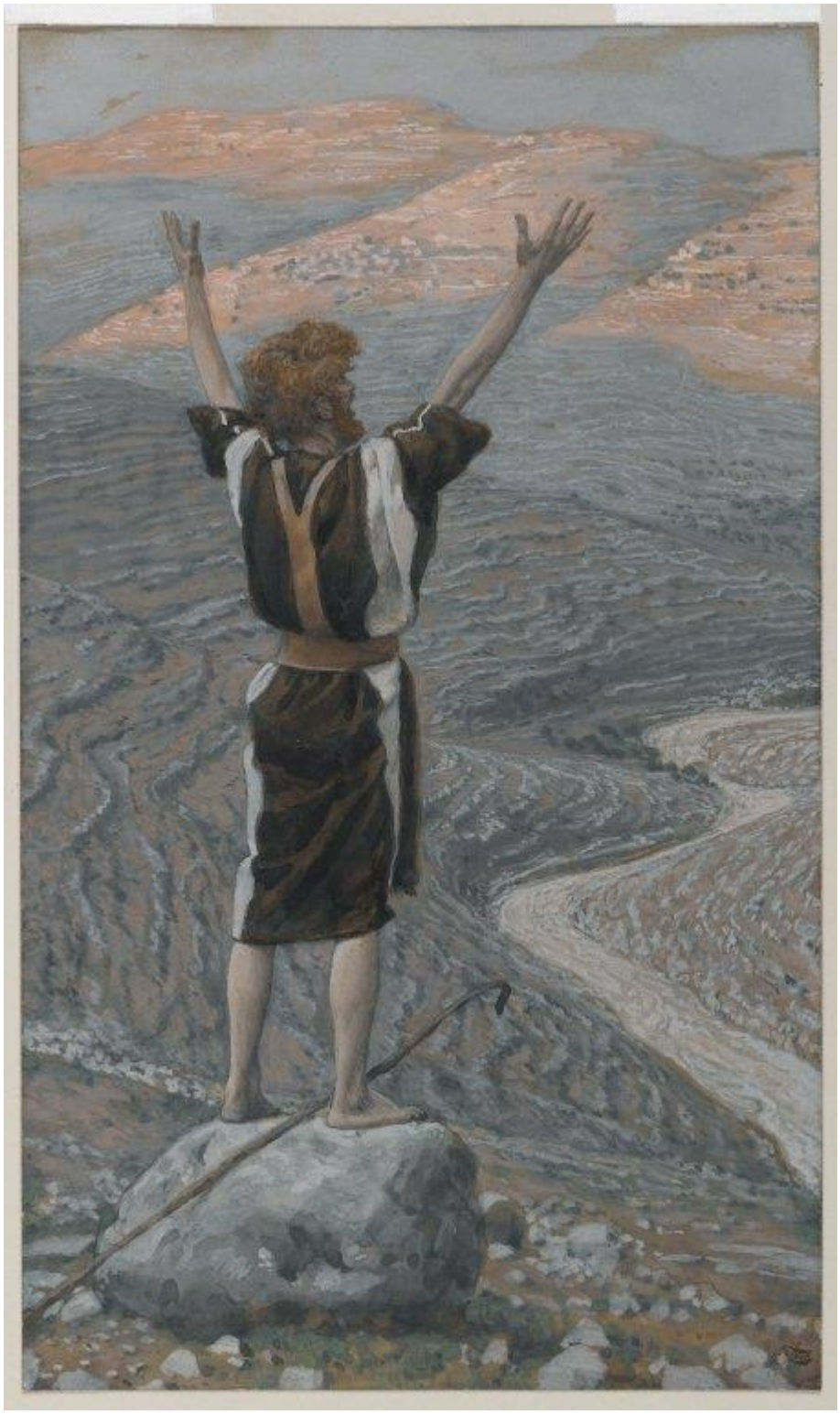

Brooklyn Museum, John the Paptist call for the Messaya

يوحنا المعمدان "الصوت الصارخ في البريّة لأستدعاء المسيح- متحف بروكلين-نيويورك

John the Baptist summons villagers , Boughily , 16th Cnetury

يوحنا يعظ الجموع، بريشة بوغيلي، القرن السادس عشر

John the Baptist Shrine in Ummaya Mosque , Damascus, Syria

مقام النبي يحيى في المسجد الأموي، دمشق

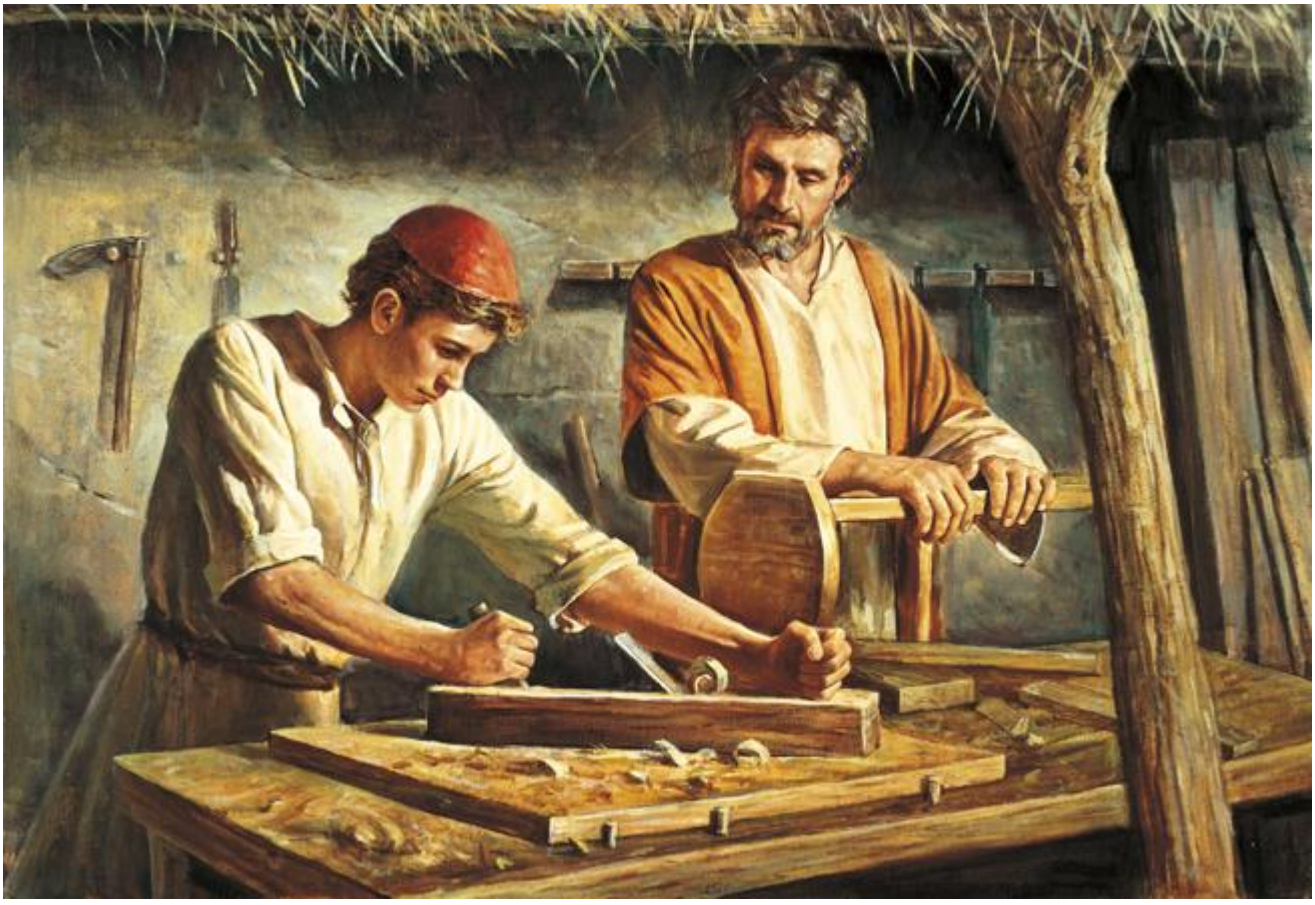

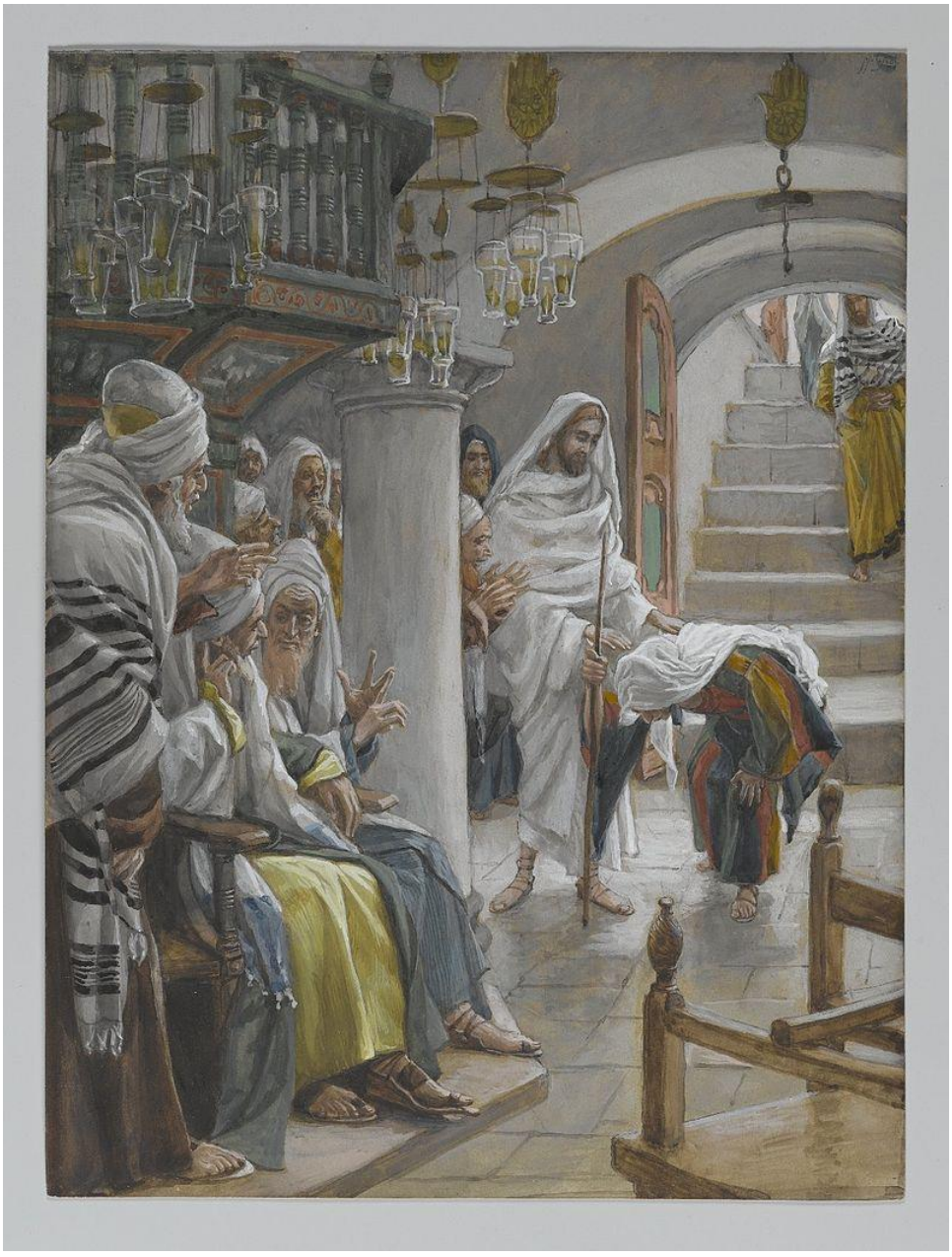

Christ healing an infirm woman on the Sabbath, By James Tissot, 1886-1896

شفاء المرأة العاجزة

شفاء المشلول في بيت صيدا

Christ healing a bleeding woman Photo from Catacombes of Rome- 1500 years old

شفاء امرأة تنزف دما – لوحة عمرها 1500 عام

Mihaly Munkacsy - Le Christ devant Pilate - 1881

يسوع في جلسة أولى أمام بيلاطس البنطي، الحاكم الروماني. بريشة مونكاسي، 1881.

Jesús en casa de Anás Museo del Prado José de Madrazo

يسوع أمام المجلس الأعلى لليهود - السنهدرين، حيث تمت جلسة المحاكمة الثانية. بريشة جوزيه دي مادرازو، 1803.

Theophanes the Cretan - Holy Monastery of Stavronikita

أيقونة روسية أرثوذكسية، تظهر جانبًا من درب الآلام: الجلد على العمود وإعانة سمعان في حمل الصليب

Jesucristo crucificado, y es una de las obras religiosas más conocidas del pintor sevillano Diego Velázquez.

أيقونة «موت المسيح»، ويشير الشعر المنسدل على نصف وجه يسوع، إلى طبيعته الإلهية التي لم تتأثر بالموت حسب العقائد المسيحية. بريشة فيلزاكيز 1603.

Henryk Siemiradzki - www.abcgallery.com

لوحة مشاعل نيرون، وفقًا لتاسيتوس، إستخدم نيرون المسيحيين كمشاعل بشريّة

Orthodox icon of Constantine and St. Helena

رمز الأرثوذكس للإمبراطور قسطنطين وأمه القديسة هيلانة

15th Century Orthodox icon in Constantinople (Istanbul now)

أيقونة أرثذوكسية من القرن الخامس عشر في القسنطينة (اسطنبول حاليا)

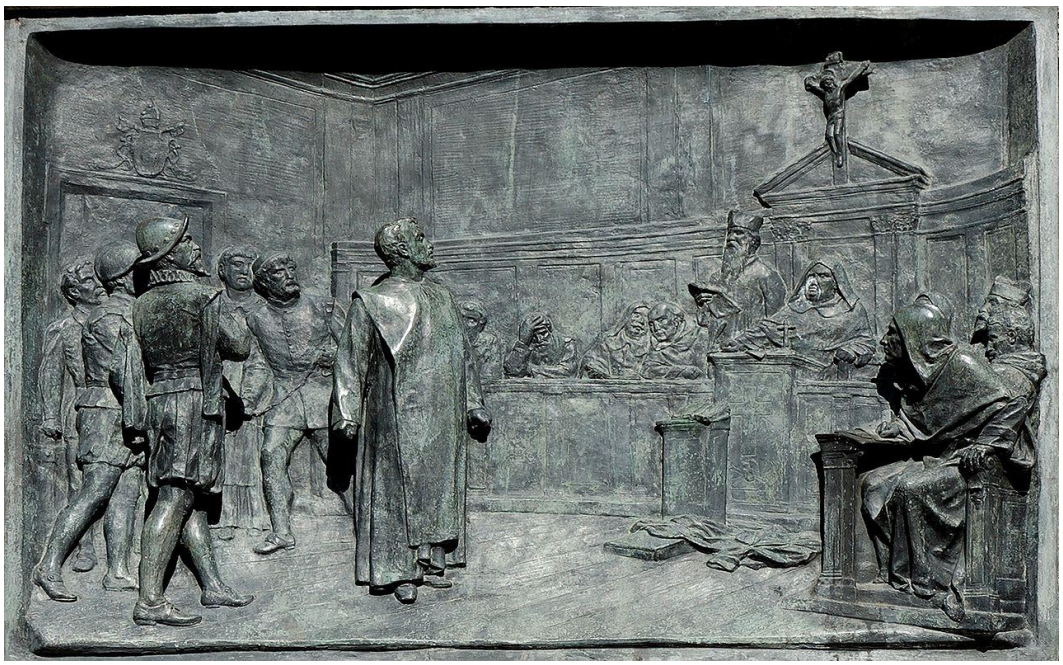

The trial of Giordano Bruno by the Roman Inquisition. Bronze relief by Ettore Ferrari, Campo de' Fiori, Rome

لوحة برونزية لمحكامة برونو في المكان الذي أحرق فيه في روما في ساحة Campo de' Fiori

This monument of Campo de' Fiori was erected in 1889 in the site where he was burned alive for opposing the Catholic church authority.

تمثال برونو في المكان الذي أحرق فيه في روما في ساحة Campo de' Fiori

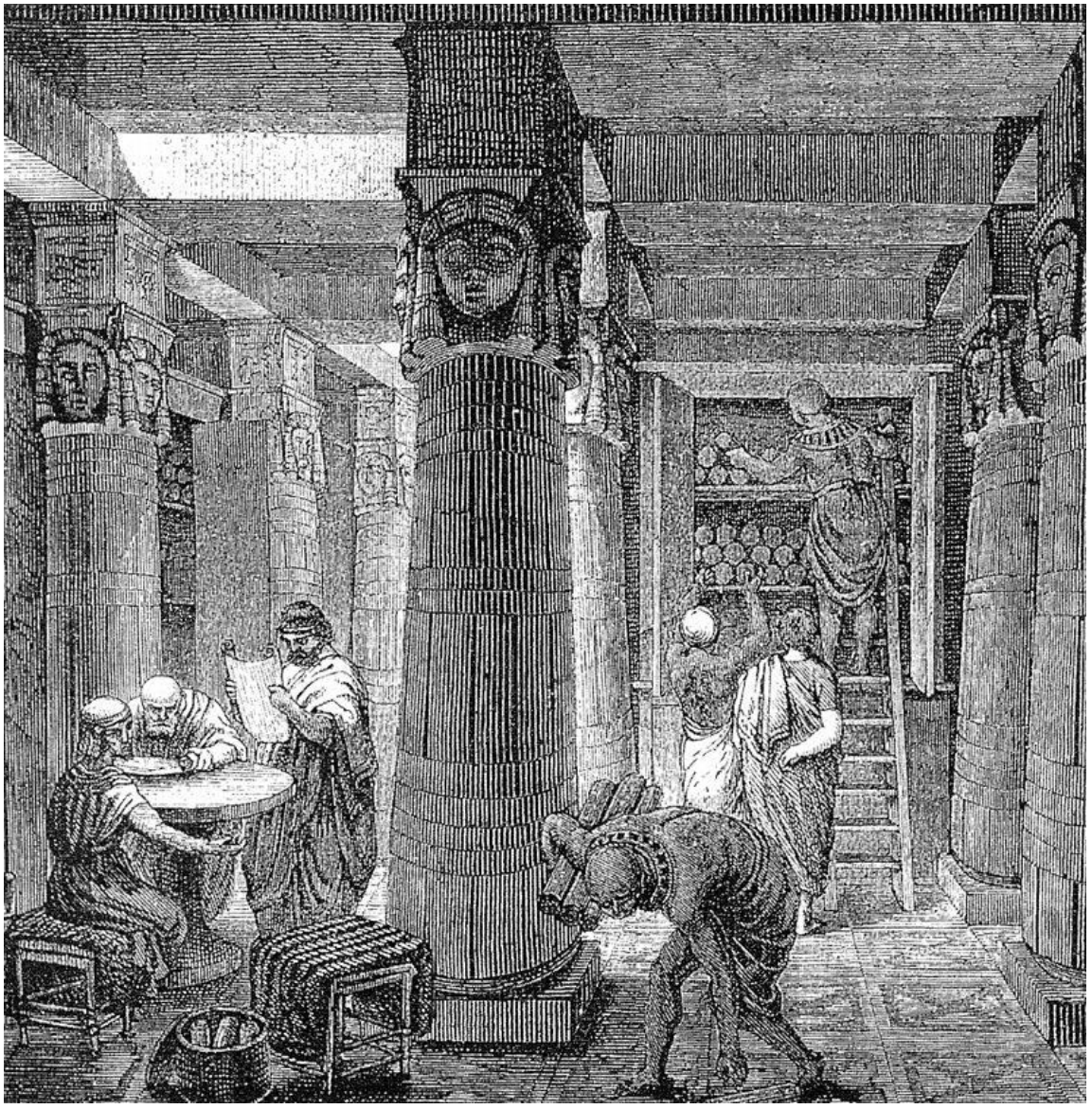

Artistic Rendering of the Academy of Alexandria, based on some archaeological evidence

رسم تخطيطي لأكاديمية الأسكندرية للفلسفة والبحث العلمي التي تم أحراقها على يد المتهوسين من المسيحين قرابة 400 م لأتهامها بالكفر والهرطقة ومخالفة تعاليم الرب واستطاع فلاسفتها وتلاميذهم الهرب الى جنوب فارس والعراق (نيسابور)حاملين معهم أعمال الفلاسفة العظام سقراط وأفلاطون وارسطو وأبيقور، ولولا ترجمتها الى الأرامية ومن بعدها الى العربية لضاعت هذه الأعمال وماعرفت بها الأنسانية ، ولما قام عصر التنوير الأسلامي ولا الأوربي من بعده.

الباب الثالث
نشأة التوحيد الأسلامي
بروز عصر التنوير كان بفضل الفلسفة وليس بفضل الدين

1. قراءة عامة لنشأة و تاريخ الأسلام

ظهر الأسلام كدعوة توحيدية في شبه الجزيرة العربية، وهي بقعة لم تكن باي حال من الأحوال مرشحة ان تنتج فكرا أو دينا توحيديا، او القيام بأصلاح إجتماعي، نظرا لأنعزالها عن مراكز الحضارة الكبرى في بلاد الرافدين ومصر وسوريا . ارضها صحراوية قاسية، وسكانها بالدرجة الأولى هم من قبائل البدو الرحل تعودوا على تقاليد الصحراء مثل العيش من الغزو، والعصبية القبلية، وكونوا لغة جميلة تعتني بالشعر وليس بالفكر. إن دعوة الأصلاح التي بدأها النبي محمد في القرن السابع الميلادي قد جاءت أساسا للقضاء على التسلط المالي والديني على مكة من قبل اثرياءها.
وكانت مكة هي المركز الديني والتجاري لهذه القبائل، فالقضاء على الوثنية سيمكنه من القضاء على اهم مصادر نفوذهم وثروتهم. وركزت دعوته بداية خلال الفترة المكية على مدى 12 عاماعلى الروحانيات ، كما يمكن تشخيصه من السور المكية في القران. وأستخدم وسائل سلمية مثل النقاش والجدل بالتي هي أحسن مع المشركين ،والتهديد بعذاب الرب للمشركين وللذين يكنزون الذهب والفضة، والأشادة باهل الكتاب من اليهود والنصارى. ولكن الحال تغيرت من بعد هجرته الى المدينة واخذت السور المدنية تدعو للغزو والقتال لتوطيد السلطة، وتم طرد أهل الكتاب من الجزيرة.
وتحولت الدعوة من سلمية في مكة الى صراع عنيف وحروب أدت الى تنازل اثرياء مكة عن السلطة الى محمد بعد 11 عاما من هجرته، مقابل الحفاظ على ثرواتهم وامتيازاتهم، وهو حل وسط ، يكرس انتصار الأسلام مقابل الحفاظ على الثروة والنفوذ لأغنياء قريش. والأسلام كدين، من الناحية الفعلية ، لم يات بجديد ، فهو أغلبه من اليهودية، حيث أخذ منها الكثير من شرائعها، وكل صفات الأله من جبروت وقوة وتخويف وانتقام من ألأعداء،وردد سير انبياء بني اسرائيل وأعتبرهم داعين لله وخصوصا موسى الذي ورد ذكره قرابة 300 مرة في القران، وأخذ قليلا من المسيحية كون شخصية المسيح لاتناسب مجتمعا بدوبا يؤمن العين بالعين والسن بالسن، فالمسيح نادى بالعفو وأعطاء الخد الأيمن اذا ضرب الأيسر، وهو أمر غير وارد في الجزيرة. ولقد أنتشرالأسلام بعد وفاة النبي وقت أنحلال اقوى امبراطوريتين في العالم انذاك : الفارسية والرومانية، اللتان مزقتهما وأستهلكتهما الحروب بينهما، مما مكن الخلفاء بعد النبي محمد التغلب عليهما بسهولة على يد قبائل تعودت على الغزو للحصول على الغنائم ، فكيف الحال بثروات وكنوز فارس وبلاد الرافدين والشام ومصر. وأمتد الأسلام ليبسط سلطانه عليها بسهولة ويتوسع ليصل المحيط الأطلسي غربا والى الهند شرقافي اقل من خمسين عاما من دعوة محمد للأسلام.
وبقدر ماكانت تدور حروب ، ظاهرها نشر الأسلام، وجوهرها التوسع والحصول على الغنائم والأثراء والتوسع الجغرافي لجمع الخراج الغزير، لشحة موارد الجزيرة، كانت المناطق التي غزتها القبائل البدوية تزخربالحضارة وألأزدهار الفكري، خصوصا في بلاد الرافدين وفارس، فقد كانت تجري فيها أعادة الولادة للفلسفة اليونانيةعلى قدم وساق، حيث جرت ترجمة أعمال الفلاسفة اليونان قبل الفتح الأسلامي الى الأرامية، وتحديدا في نيسابور (قرب البصرة وعبادان اليوم) ،ومن هناك تمت ترجمة الفلسفة اليونانية للعربية في دار الحكمة في بغداد مركز سلطة الخلافة العباسية زمن الرشيد ومن بعده المأمون. وبفضل اعادة ولادة الفلسفة اليونانية ،ولدت حركة التنوير الفكري وتطور العلوم والتي يمكن تسميتها«حقبة التنوير الأسلامي» التي استمرت قرابة 7 قرون. لقد اسس عصر التنوير لأغلب العلوم الحديثة مثل الطب والجبر والكيمياء والفلسفة والموسيقى والجغرافية . والفترة التنويرية هذه لايمكن ان تنسب باي حال من الأحوال الى الأسلام كدين ،كما يدعي بعض المؤرخين الأسلامويين اليوم، بل الى جهود المئات من الفلاسفة والعلماء المتأثرين بالفلسفة الأغريقية العقلية، الذين غالبا ماأتهموا أنهم ملاحدة او زنادیق ، وكان الأرهاب الديني يطالهم بين الحين والأخر، حينما يرى امير المؤمنين أو وزرائه ،او المفتين من أولياءه، ان الفلاسفة والعلماء يشكلون خطرا على سلطته. وانتهى عصر التنوير بسقوط بغداد على يد المغول عام 1258م، وسقوط الأندلس على يد فرديناند وجيش البابا الفاتيكاني عام 1453م. ومن ذلك التاريخ لم تقم للأسلام ومناطق أنتشاره قائمة ، ولم تشهد نهوضا رغم كثرة المساجد والمعابد والمؤمنين والوعاظ، والألاف من كتب التفسير وتدوين السيرة وكتب الوعظ الديني، مما يؤكد ان غياب العلم والعقل هو سبب التخلف والشلل، وليس بالأبتعاد عن الدين ، كما يحلو لرجال الدين واتباع الأسلام السياسي أدعاءه ، فها هو الأسلام موجود ،ولكن الحضارة والتقدم غائبان ، وعصر التنوير الأسلامي الذي قام على العلم والعقل والفلسفة أنتج حضارة راقية وفيرة الأنتاج ،وجميعها اليوم غائبة، ولو اعيد العمل بالعقل مجددا ،بعيدا عن الخرافات والأنغلاق الديني، لتغيرت حال المنطقة ، ولتغير حال شعوبها بلاشك، للأحسن.

2. قراءة لنشوء التوحيد في مكة

ولد الأسلام على يد النبي محمد في مكة عام 610 م، و كان عمره أربعون عاما . لقد ولد محمد يتيما ونشا فقيرا فيها حتى بلوغه سن الشباب وعايش هيمنة وجشع الطبقة الثرية على مكة بزعامة أثرياء قريش وعلى رأسهم ابي سفيان، اغنى أغنياء قريش، القبيلة التي ينتسب لأحد بطونها النبي محمد نفسه، وهم قبيلة بني هاشم، الذين كانوا تاريخيا سدنة للكعبة متوارثة لهم عن جدهم الأعلى، ولكنهم فقدوا السلطة تدريجيا بتراكم الثروة عند بطون قريش الغنية الأخرى، مثل بني امية وبني مخزوم. وكان مقابل الفقر المفرط لبني هاشم (حيث نشا النبي فيها يتيما وكفله جده ومن بعده عمه) تجد الثراء المفرط لتجار مكة، ممن كنزوا الذهب والفضة و لهم السلطة العليا على مكة وكل قبائل الجزيرة. كانت قوافل قريش المحملة بمئات الألاف من الدنانير والدراهم الفضية والذهبية لا تتعرض للغزو من قبائل البدو،،وذلك كون قريش تحتضن وتحمي الهتهم في الكعبة، وبالتالي كانت الوثنية ومركزها الكعبة، أحد أهم أسباب ثراءهم .ولاغرابة ان تكون أول دعوات محمد بعد أدعائه النبوة محاربة الذين يكنزون الذهب والفضة ومحاربة الجشع والتفاوت الأجتماعي الصارخ في مكة والدعوة لأنصاف الفقراء والمحرومين واليتامى .

ان طفولة محمد القاسية ن والفقر الذي ترعرع فيه، مع حمله للقيم الأخلاقية العالية ، كونه ترعرع في قبيلة معروفة بروحانيتها العالية كسدنة للكعبة، قد تركتا بلاشك اثرها في تكوين طيات شخصيته كثائر أصلاحي على القيم السائدة على الجشع والفروقات الأجتماعية القائمة في مكة. ولاشك أن الحرمان في طفولته (التيتم والفقر) لعب دورا هاما في بلورة ذلك الوعي والميل للثورة وللأصلاح. وكانت نقطة بداية عمله عند خديجة ، وهو في سن العشرين ،وهي المراة المسيحية الثرية ، ولقاؤه أبن عمها القس ورقة بن نوفل، قد تركا بلاشك أثرا هاما في تكوين الوعي التوحيدي للنبي محمد، خصوصا دور الأخيرفي بلورة ثقافته ومعرفته بالأديان التوحيدية، فورقة كان يجيد اللغات العبرية والأرامية والعربية، وهو المعروف في مكة بالحكيم والمترجم للكتاب المقدس«التوراة» الى العربية. وتبلورت ثقافة النبي اكثر عند عمله بالتجارة عند خديجة*، وسفره و أطلاعه في الشام على مدن مسيحية مزدهرة اثناء ارتحاله اليها مع قوافل خديجة، وربما من خلال رؤية له لدوريمكن ان يلعبه التوحيد في القضاء على الوثنية ، وبه يمكن تقويض سلطة وثروة قريش، قد راودته منذ سفراته الأولى تلك .

أن هذه العوامل جميعها لعبت دورا هاما في بلورة شخصية النبي محمد وهو لازال في بداية العشرين من عمره. ولعب زواجه بالسيدة الثرية خديجة وهي تزيد على الأربعة وألأربعين ،وهو بعمر أربعة وعشرين (وبلاشك كان زواجهما مسيحيا قام بطقوسه ابن عمها القس ورقة بن نوفل كما تشير المصادر)، قد شكل النقلة الثانية في نشأة شخصيته ، حيث وجد في خديجة دور الشريك الذي معه يستطيع ان يضاهي أثرياء قريش ويقارعهم ، وبابن عمها القس ورقة دور المعلم والمسند له في حياته الروحية والفكرية ، وعمه ابو طالب الذي يوفر له الرعاية الأبوية والحماية القبلية.

==========

*مركز خديجة هذا يؤكد ان للمرأة في الجزيرة كانت مكانة هامة غير مايدعيه البعض عكس ذلك؛ وربما ماأشير له في القران بوأد المولودة الأنثى كان يشير الى قبائل بدوية قليلة جدا وشبه متوحشة خشية وقوع البنات في السبي مما يسبب للعشيرة اهانتها بشرفها؛ ولهذا فهم فضلوا وأد بناتهم للحيلولة دون وقوعهن في الأسر وألأذلال.وألأسلاميون اليوم يدعون ان وأد الفتيات كان تقليدا منتشرا عند العرب ، ولو صح ذلك فكيف نفسر ان جميع الصحابة بدون أستثناء كانوا متزوجين باربعة او ستة من النساء ، فمن اين اتوا بهن؟

3. المرحلة المكية – دعوة سلمية وجادلهم بالتي هي أحسن

بدأ محمد دعوته الأصلاحية مغلفة بالروحانيات بأسم الله الواحد الموحد، الرحمن والرحيم، لتقويض الوثنية ومن خلالها تقويض سلطة أثرياء قريش في مكة ، حيث ان تواجد الكعبة في مكة قد منع القبائل من مهاجمة قوافل تجار مكة كونهم حماة للكعبة حيث تقبع الهتهم. وكان أول من اسنده وعاضده هي زوجه خديجة ، وأبن عمها القس ورقة بن نوفل والذي كان على أيمان ودراية بما ورد في الكتب المقدسة ؛ وخصوصا التوراة، بان لا بد من ظهور مخلص ومنقذ لهذه الأمة من جشع مكة ،فكان له سند قوي وبمثابة يوحنا المعمدان الذي بشر بظهور المسيح. ولم تعر قريش أهمية لما يصل اليها من تراتيل القران واياته مع جماعته الأولى،وأعتبرت أن محمدا أضحى شاعرا أو مجنونا ولايشكل خطرا عليها بتراتيله السجعية. ولكن الأيات القرأنية بدأت تدريجيا تحرض على الثراء الفاحش والجشع في مكة « والذين يكنزون الذهب والفضة بشرهم بعذاب اليما» ،«وللسائل والمحروم في أموالكم حق معلوم» ، ومنها بدأت قريش وزعامتها الثرية تشم رائحة التحريض عليها وأهانتها، وربما شمت رائحة التمهيد للأنقضاض على سلطانها، خاصة وأن أدعاء محمد بان مايوحى له هو من الله مباشرة، مما سيعطيه منزلة أجتماعية مميزة ربما تؤدي ان يصبح محمدا هو السيد على الكعبة والحامي لها بديلا عنهم. واضحى اكثر وضوحا بأن مايطلبه محمد هو السلطة على مكة، وليس مجرد دعوة مثل بقية الدعوات كاليهودية والمسيحية التي كانت تتغلغل ببطء في مجتمع الجزيرة ولكن دون اثارة لحفيظة قريش. ولكون النبي محمد رجل ذو مشروع طويل الأمد، فقد كان يطمأنهم ان دعوته ليست للسيطرة ، بل للنذر والتبشير الألهي فقط وأنه ليس طامعا في سلطة « وما ارسلناك الأ مبشرا ونذيرا ولست عليهم بمسيطر». وكان ذلك يهدءهم لبعض الوقت، ولكن سرعان ما تنزل اية اخرى تهاجم العبادات الوثنية بكل حدَة وتهين أكثر ألهتهم منزلة مثل اللاَت والعزَى. وأزدادت الأمور حدة عندما أمر النبي أصحابه الذهاب للكعبة موسم الحج ورفع شعار التوحيد الأبراهيمي «لا اله الأ الله» علنا بين القبائل وتهديدهم أن ألأشراك بالله كفر عقابه جهنم في الأخرة وبئس المصير. ومع تعاظم هذا الخطر الكبير القادم على قريش وامتيازاتها بنسف التعبد للألهة الصنمية في الكعبة؛ نقلت قريش محاربتها لمحمد من المعارضة اللفظية الى فرض الحصار على الدعاة الجدد ومنعهم من دخول الكعبة ، بل وتعداه الى الأعتداء المباشر على اضعف فئة منهم الغير محمية من القبائل مثلما حدث مع أم عمار أبن ياسر التي ماتت بعد أجبارها على الوقوف في الشمس لفترة طويلة وفيه تهديد واضح لمناصري محمد، ولكن الأيات الروحانية استمرت بالنزول والأصرار على أستخدام الوشائل السلمية « وجادلهم بالتي هي أحسن» .

وفرضت قريش مقاطعة وحصارا اقتصاديا وأجتماعيا على قبيلة بني هاشم بأجمعها (مثل منع التزواج معهم) بعد رفض الأخيرة مطالبتهم بالتخلي عن محمد والتبرؤمنه كي يتسنى لقريش بوضع حد السيف عليه دون حماية قبلية. وأمام هذا التصعيد، أمر محمد صحابته بالهجرة الى الحبشة في السنة الخامسة بعد الدعوة (قرابة 615 ميلادية). وخلال الأقامة الحبشية كانت الأيات القرانية الروحانية تتوالى وتدعو الى الصبر من خلال سرد قصص مكرسة لصبر وصمود أنبياء بني اسرائيل السابقين الواردة في العهد القديم «اي التوراة» مثل قصص أبراهيم ويعقوب وموسى ولقمن وما تعرضوا له من مصاعب وقد صبروا عليها حتى انجدهم الله وأنجاهم. وعاد تدريجيا معظم المهاجرين من الحبشة وعلى رأسهم النبي محمد؛ وبرجوعه شهدت الدعوة انبعاثا جديدا. ولكن بحلول عام 619 م فقد النبي اهم حاميين ومساندين له وهم: زوجه خديجة، وبعدها بأيام عمه ابو وطالب، وبذلك فقد محمد اكبر ركيزتين له.ومما زاد الطين بلة، ان عمه ابو لهب، عدو النبي اللدود، ا كانت له علاقات ومصالح مع تجار مكة ، وتبوأ رئاسة بني هاشم بعد ابي طالب، ،وبذلك فقد محمد حماية قبيلته بني هاشم؛ واصبح الخطر باغتياله واردا في اية لحظة ، مما إضطر النبي لتقليص نشاط دعوته من جديد. ولكن مفاوضات سرية كانت تجري مع قبائل من يثرب من الأوس والخزرج كانوا يعانون من مباهاة اليهود عليهم بان لهم انبياء وإله أعلى من بقية العرب والله نفسه هو من يقوم بحمايتهم ورعاية شؤونهم ، وقرر مالنبي مع قرابة 150 من اتباعه الهجرة الى المدينة.

Balami Tarikhnama - The Battle of Badr - The angelic host is sent to assist the Muslims

رسم من القرن 14من كتاب «تاريخ نامة» يظهر التدخل الملائكي لنصرة المسلمين (في الأعلى) في معركة بدر

4. المرحلة المدنية- الأنتقال من الروحانيات الى تشريع الغزوات والسبي والقتال

وجد الأوس والخزرج في دعوة محمد ساندا لهم في تنافسهم مع يهود المدينة كونه نبيا لأله موحد ورب قوي، ليس اقل منزلة من أنبياء اليهود؛ فهو نبي عربي قريب منهم. وتم ترتييب هجرته وأصحابه الى المدينة «يثرب» عام 622 م ، التي ستصبح معقل الدعوة الصاعدة للأنقضاض على قريش وزعمائها الثراة الجشعين والهة مكة. ولكن أول مشكلة واجهت النبي في يثرب هي عدم مبايعة اليهود له كالنبي المخلص المنتظر، كما ورد في كتبهم المقدسة «التوراة»، وكما بُشر به في الأيات المكية ، بحجة انه ليس من نسل داود، مما خلق تشكيكا بمصداقية النبي وزعزع موقفه في يثرب أمام الأوس والخزرج .ففي اكثر من مكان كان يشير في السور المكية «واسألوا أهل الكتاب إن كنتم لاتصدقون» ، وهاهم أهل الكتاب يرفضون دعوته. وشكل ذلك تحديا معنويا كبيرا له وخطرا على مشروعه المستقبلي الذي بدأه للتو في المدينة، وعليه بدات الأيات تنزل بذم أهل الكتاب،أي اليهود، بعدما كانت في مكة تشيد بهم وان الله فضلهم على العالمين .

والمشكلة الثانية التي واجهت النبي هي ضعف الحالة الأقتصادية للمهاجرين وليثرب نفسها. وهنا وظفَت الوسيلة الألهية بشكل براغماتي وقدمت الذرائع والمقدمات لتشريع الهي يسمح بالغزو والهجوم على قوافل قريش بأعتبارهم اعداء الله وكونهم من المشركين به، ونزلت الأية القرانية « أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرتهم بقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق حتى يقولوا ربنا الله»، واية اخرى تشجع الأنصار للأنخراط في الغزوات بعدما ترددوا خوفا من انتقام قريش« يا ايها الذين امنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله». وكلمة جاهدوا يفسرها اغلب المفسرين «الذين يشاركون في الغزوات من الأنصار».

وبفضل هذه التشريعات الألهية، قام المسلمون بقرابة 68 غزوة على القوافل المتوجهة الى مكة أو على قبائل مجاورة للمدينة لأخضاعها ، ويشكل هذا أول ابتعاد عن الروحانيات لنشر الدين الجديد, واللجوء لأساليب القتال و الغزو والتهديد بالقتل .

و قام محمد بالتخلص من القبائل اليهودية الثلاثة ،لأنهم رفضوا الأعتراف به نبيا منقذا ، باستخدام حجج واهية لأصدارالأمر لمهاجمتهم ، وجرى ذلك مباشرة بعد كل موقعة يخوضها وينتصر فيها مع قريش .حيث تسنى أولا التخلص من بني القينقاع، بعد موقعة بدر مباشرة، وهي أصغر واضعف القبائل اليهودية في يثرب، بعد حصار فرضه عليهم دام 15 يوما أثر حادثة مسيئة وقعت لأمراة مسلمة في سوقها الكبير أُستغلت لأجبارهم على قبول أحد شرطين: أما تسليم الجناة للقصاص، او مغادرة المدينة. وقد اختار بني القينقاع الأخيرة،والهجرة باتجاه الشام. وبعد معركة أُحد،تم تهجير بني النضير. حيث جهزت قريش نفسها لأخذ الثار، ولكنها لم تحقق هدفها: القضاء على تمرد يثرب وارجاع محمد الى مكة أسيرا او مقتولا، بل تعدى فشلها الى أكثر من ذلك: الى إعتراف غير معلن منها باستقلال يثرب وسيطرة النبي عليها كحاكم عندما وافقت على الأنسحاب من المعركة ومن ارض يثرب كلها دون حصار او شروط ،و هو بلاشك أنتصار للمسلمين*. وبعد كل معركة ينتصر فيها النبي على قريش، ويشعر ان نفوذه يكبر على يثرب،يقوم بتهجير أحدى قبائل اليهود والتخلص منها . وهذه المرة كان دور بني النضير، إذ أتهمهم النبي بتدبير مؤامرة لتسميمه من خلال دعوته الى مأدبة اقاموها له، وهولم يحضرها اساسا ،وأمام هذا الأتهام الحدسي وليس المادي، بدأ محمد في اليوم التالي حصارا عليهم لمغادرة المدينة الى ألأبد. أستمر الحصار لمدة عشرة ايام، تم خلاله حرق نخيلهم، وخاصة أهم مزارعهم في فدك. وكانت بني النضير قبيلة زراعية تعتمد في معيشتها على محاصيل النخيل، فلم يبق لهم شيئا يستحق البقاء ليقاتلوا من أجله ، بعد حرق نخيلهم، فوافقوا ورحلوا الى ممتلكات لهم في خيبر. وبذلك تسنى للنبي التخلص من ثاني قبيلة يهودية في يثرب.

==========

* أنظر مونتغمري واط «محمد النبي ورجل الدولة» - ط.2014 –دمشق وبيروت

ولكن حرق نخيل بني النضير ومصادرة أراضيهم خلق مشكلة معنوية وروحانية أثارت الأصحاب والأعداء سواسية للتشكيك بروحانية محمد الذي امربنفسه بحرق أشجار النخيل، والنخلة هي شجرة مباركة ومقدسة تاريخيا في المنطقة، وكان يحرم قطعها أو حرقها حتى في الشرائع القديمة (على سبيل المثال تنص لوائح شريعة حمورابي العائدة لعام 1750 ق.م. ، أي أكثر من الفي عام قبل الدعوة الربانية المباركة، بعقاب من يقطع نخلة بنفيه الى خارج مدينته لمدة 3 سنوات ليزرع نخلة جديدة وينتظر حتى مرحلة اثمارها لكي يسمح له بالعودة من جديد لمدينته)*.

وجرى بعد موقعة الأحزاب (الخندق) مباشرة التوجه لأبادة بني قريظة عن بكرة ابيها. حيث اتهمهم النبي بخذلانه والخروج على العهد معه للوقوف على الحياد عند تقدم قريش الى يثرب، والواقع ان بني قريضة بقوا فعلا محايدين، ولكن محمد قد علم من أحد مخبريه السريين «جاسوسا» أنهم سيقفون مع المنتصر. ورغم انهم لم ينصروا قريشا، ولم يشاركوا باية معركة التزاما منهم بالحياد، الأ ان موقفهم الذي سينحاز للمنتصرقد أُعتبر بمثابة خيانة للعهد والأتفاق مع النبي، وهذا امر مفروغ منه فلاقدرة لهم على قتال قريش لو انتصرت ، كما لايعتبر ذلك خروجا عن الحياد. وهكذا تمت محاصرتهم مدة 25 يوما ، رضخوا بعدها واستسلموا دون قيد ولا شرط ،على أمل أن يسمح لهم بمغادرة المدينة كما حصل مع بني النضير، ولكن محمد رفض ذلك وفرض القصاص عليهم بالأبادة الجماعية لرجالهم مافوق 12 عاما والبالغ عددهم قرابة 700 الى 800 رجل، وسبي نسائهم وأخذ اطفالهم عبيدا. وهذا ايضا سبب تشكيكا روحيا ومعنويا في المدينة ، خصوصا أن قبيلة الأوس كانت على عهد متبادل معهم لنصرة بعضهم، و توسطت لدى محمد للسماح برحيلهم , معتبرة أن لها منزلة خاصة عند النبي حيث احتضنته واصحابه في يثرب عند هجرتهم من مكة ، ولكن وساطتها رفضت، ولم تنفع توسلات الأوس فقد ابيدت القبيلة بكاملها. أن الكثير من المؤرخين يعتبرون أن الأسلام الروحاني قد انتهى في المدينة المنورة بهذه الواقعة بالذات ، وكذلك من قبلها بحرق نخيل فدك تحديدا. فالبراغماتية تجاه السلطة والنفوذ أصبحت هي السائدة في يثرب، وأختفت الروحانيات في القران أيضا، وحلت محلها ايات تدعو للقتال والجهاد لنشر الدين ،وبدأ الأسلام يتحول من دعوة «وجادلهم بالتي هي أحسن» الى «وقاتلوهم حتى تقتلونهم» . واصبحت الشرائع تجيز فرض الأسلام بالقوة و بالقتال بعد ان كانت مكتفية في مكة بالمجادلة اللفظية «ولا اكراه في الدين» .

أن الكثير من مؤرخي ودارسي الأديان السماوية يجمعون أن موسى ومحمد، هم قادة سياسيون. فهم عملوا على تحويل الدعوة التوحيدية الى أداة لأقامة سلطة على الأرض. وقد سار على سيرتهم ، الملوك والخلفاء والملالي ، وماعليهم سوى وضع أسم الله وسيرة نبيه لتبرير اي عمل يقومون سواء كان قمعا أم قتلا ام غزوا ام سبيا او حرقا أومصادرة – لغرض تثبيت السلطة والنفوذ. هذا مافعلع ملوك بني اسرائيل في كنعان (والأسلام يدوهم أنبياء) ، وهنا يكمن الخطر الكبير في استخدام أسم الله لتحقيق مآرب سياسية وسلطوية ونفوذ للحكام والملوك ، والأنسانية اليوم ، ومن خلال العلم والتمدن منعت استخدام الدين في الحياة العامة تجنبا لأستخدام أسم الرب في أعمال تنافي الروحانية الربانية تستخدم لتمرير او تبرير جرائم للوصول لمنافع شخصية أومصالح السلطوية.

==========

* أنظر شريعة حمورابي. ترجمة محمود الأمين. شركة دار الوراق للنشر المحدودة (الطبعة الأولى: 2007)- الفصل الخامس الخاص بالبساتين وألأشجار والسكن.

The only other surviving large image from the time: top part of the Code of Hammurabi, c. 1760 BCE. Hammurabi before the sun-god Shamash. Note the four-tiered, horned headdress, the rod-and-ring symbol and the mountain-range pattern beneath Shamash' feet(Louvre).

مسلة حمورابي (قرابة 1760 ق.م) يتلقى شريعته من الأله شمش (اول قانون مدني في العالم ينظم الحياة العامة) وفي احد بنودها معاقبة قاطع النخيل بالنفي 3 سنوات ليزرع فسيلة وتنمو حتى تثمر ليسمح له بالعودة لمدينته من جديد ومنها أزدهر النخيل في العراق

5. الأسلام بعد فتح مكة – معادنة أصحاب الثروة والنفوذ

كانت مكة، في نظر النبي، أهم محطة للسيطرة على كامل الجزيرة؛ فمن يحكم مكة سيحكم الجزيرة بكل أطرافها. وتزايدت الثقة بأمكانية أحتلال مكة، خصوصا بعدما أعترفت قريش بالنبي قائداعلى المدينة «يثرب» في وثيقة صلح الحديبية(6هج-627 م) والذي ينص على وقف القتال والأعمال العدائية بين الطرفين لمدة عشر سنوات. وفيها اعترفت قريش كذلك بضمان حقوق وأمان كل من يريد الأنتساب لدين محمد؛ وهذا بلاشك يشكل أكبر انتصار يحققه محمد للوصول الى اقامة السلطة على كامل الجزيرة. ولم تكن مسألة فتح مكة الاٌ مسألة وقت، وخلق عذر مناسب لتجنب خرق صلح الحديبية. وتهيأ هذا العذر عام 10هجرية (630 م) عندما أُستغل نزاع نشب بين قبيلتين أحداهما بايعت النبي (خزاعة) والأخرى كانت على عهدها مع المكيين (بني بكر مناف) وكانت الأخيرة هي المعتدية. وتوفر للنبي معلومات عن قيام المكيين من بني مخزوم بتجهيز بني بكر بالعتاد والمؤونة فاعتبر ذلك أعتداء على أتباعه من القبائل، وخروج على الحديبية . وأيقن علية القوم في مكة أنهم أو بعضهم قد خرق الأتفاق ، ولم يكن بوسعهم مقاتلة النبي، لأن مكة قد وهنت كثيرا وضعفت ولم تستطع تجنيد قبائل كانت موالية لها في السابق. عكس قوة المسلمين، فقد تنامت خلال سنوات الهدنة من خلال ممارسة السياسة الناعمة (الديبلومسية)، وسياسة القوة (الغزوات)، وكسب المسلمون القبائل شمال المدينة وجنوبها وحول مكة ، وعليه فالنتيجة كانت شبه محسومة للمسلمين أذا ماجرى القتال. وفعلا، فقد اختارت قريش التسوية كونها في موقع الضعف، وكان النبي يعرف ذلك جيدا ، فرفض ،مثلا، إستقبال ابو سفيان عندما حضر للتفاوض. ولم يبق لقريش من خيار سوى الأستسلام حفاظا على مركزها التجاري، وكانت كل الذي تسعى اليه هو الحفاظ على المركز العبادي للكعبة، والتجاري لمكة، وتحت اي صيغة كانت، وثنية أم توحيدية، لضمان مصالحها التجارية في للجزيرة , وعليه، فقد دخل المسلمون مكة دون قتال ، وجرى أعلان الكعبة بيت لله رب العالمين، واعلان من دخل بيت ابي سفيان فهو امن ، وهكذااستوت الأموربالتصالح مع تجار وزعماء مكة،بعد ان كانوا أعداء لدودين لمحمد. وحقق الطرفان أهدافهما: فالنبي قد حقق مأأراده بحكم مكة ، والتجار حافظوا على مكانة مكة ومعها المحافظة على كافة مكاسبهم وثرواتهم. فبالنسبة لهم بلاشك الأله الأنسب هوالذي يدر ربحا اكبر، وثروة أكثر، ونفوذ أعظم ، وليست المسالة توحيدا ام وثنية. ورغم تسليمهم لسلطة مكة السلمي لبني هاشم ، الا أنه لم تمض 30 عاما على وفاة النبي محمد (11هج-632م)، حتى استطاعوا استرجاع السلطة من بني هاشم ، بعد مقتل الخليفة علي أبن ابي طالب عام 40 هج-661م ،وتبوأ تجار مكة من بني امية من جديد الزعامة التقليدية للسلطة والخلافة وعلى رأسهم ابي سفيان ممثلا بولده معاوية الذي نصب نفسه خليفة للمسلمين (عام 41هج – 662م) ،مسترجعا بذلك مجد اباءه، ليحكم تجارمكة باسم الأسلام ،بعد ان حكموا سابقا بأسم الأصنام. والواقع ان محمد لم يترك بعد وفاته وصية مكتوبة يسمي بها الخليفة الحاكم من بعده، وترك هذا الأمرللمهاجرين والأنصار ليبتوا فيه « وأمركم شورى بينكم» كما جاء في القران. وقد خلق هذا الفراغ ، بانعدام وصية مكتوبة، أشكالية كبيرة لازالت لليوم تقسم المسلمين الى فرقتين: شيعة وسنة. فالشيعة تعتبر ان عليا اجدر بالخلافة ، خصوصا وانه اوصى به في خطبة له بعد حجة الوداع في غدير خم. ولكن المهم من الناحية القانونية والعملية :أن النبي لم يترك وصية وكتابا مخطوطا، حتى بعد ما دعا اليه في خطبته شفويا . ويعلل المؤرخون ذلك ربما للأحراج الذي واجه النبي امام صحابته الأكبرسنا، مثل أبي بكر، وذلك لحداثة سن علي (24 عاما) ، ولكونه من نفس قبيلة النبي بني هاشم مما سيعطي أنطباعا أن افضلية علي للحكم كانت بسبب ذات القربى، وليس لعلمه وحكمته وروحانيته العالية ،واراد النبي بذلك تجنب التشبه بالوراثية القبلية او الملكية. ولكن متنفذي قريش أجمعوا على منع علي من الوصول للسلطة لأفكاره الروحانية التي تكرس الأسلام لمحاربة تكديس الثروة والجشع، وكان النبي يعرف ذلك ويعرف ان حربا داخلية ستنشب لامحالة ان ترك وصية مكتوبة بتتويج علي . ويعتبر ترشيح ابو بكر حلا وسطا بين صحابي قديم ومتمرس في الحياة التجارية لمكة، وهو مايرضي الشريحة االمتنفذة من تجار مكة. فالصراع الخفي في الواقع هو ليس بين علي وأبو بكر، بل بين نموذج الروحانية الذي ينوي علي أعطاءه للأسلام، وبين نموذج دولة التوسع والغزوات التي تلائم تجار وزعامة مكة الأثرياء، و مصالحهم بلاشك لا تتطابق مع شخص مثل علي ذو التوجهات التي تتمسك بالحد من الثروة والجاه كما وردت في ايات الأسلام الأولى. فهناك ثأر قديم بين زعامة مكة التجارية ممثلة بأبي سفيان، والزعامة الروحانية لبني هاشم ممثلة بمحمد وابن عمه علي ابن ابي طالب.

6. الأسلام يقيم امبراطورية الخراج بعد سقوط مدينة علي الفاضلة

كان تجار وأثرياء قريش في حالة أنتظار للأنقضاض على السلطة وألأستيلاء على الزعامة من جديد خلال فترة أول ثلاثة خلفاء حيث كان التهادن بين الطرفين هو السائد، .وفعلا تمكن تجار مكة استرجاع الزعامة ممثلة ببيت ابي سفيان بعد إنتهاء خلافة علي بمقتله عام 40 هج، وبوفاته يكون حلم اقامة دولة روحانية' فاضلة ، على غرار ماتصوره افلاطون قد تبخر ، فعلي اراد اقامة المدينة الروحانية الفاضلة ، على غرار تعاليم الأسلام الروحانية الأولى ،بما فيها من زهد، وتوزيع أموال الدولة على الفقراء، ومحاربة الجشع ، ولكنها لم تصمد أمام طمع الأعراب بالغنائم وامام سلطة التجار المكيين وثرواتهم الطائلة من الفتوحات . و أنتقل الحكم الى زعامة قريش الثرية من جديد، وجعل معاوية الحكم وراثيا ملكيا وباسم الأسلام هذه المرة، وقامت مايدعى بالدولة الأموية التي توسعت بالغزو والفتوحات باسم نشر الأسلام ، ولكنه في الواقع التوسع للحصول على المليارات من خراج البلدان المفتوحة واستخدام القبائل البدوية الطامعة بالغنائم لنشر الأسلام وهي لاتعرف منه سوى الغنائم وتوزيع السبايا «ما ملكت ايديكم» اضافة لأربعة زوجات حلال، بينما قام الأمويون بادارة امبراطورية لتغيب عنها الشمس وتمثل اغنى دولة في العالم وثروة وبذخ لم يحلم بهما تجار مكة.

و لا يمكن، بأي حال من الأحوال ، أعتبار ان القبائل البدوية التي غزت العراق ومصر انما اتت لنشر الأسلام ، فهي كانت بالأساس مرتدة عليه،وقت غزو هذه البلدان ، انما هي غزت لأجل الغنائم والسبايا والصبايا والكنوز، وليس لنشر دين الله وكلمته ،كما تدعي الكتب الدينية والكتب الرسمية لتاريخ الأسلام.

ولا بد من التوقف هنا لتصوير أحوال مكة والجزيرة بعد هذه الفتوحات الواسعة، وما أدرته من ثروات خيالية الى مكة والمدينة، وجعلت أعداد كبيرة من زعماء وأعضاء القبائل، الذين شاركوا في هذه الفتوحات، من اكابر أغنياء المنطقة بعد ان كانوا بالأمس القريب سكان صحراويين. ويكفي ان نشير أن رجلان أعرابيان تقاتلا على من يستحوذ على بنات كسرى أخر ملوك الفرس؛ عدا النهب والسلب الذي نال قصور أغنى الملكيات في العالم أنذاك.

وقد أجزل عمر العطاء حسب النسب من قريش والقدم في الأسلام من الصحابة سواسية ب 100 الف دينار ذهبي وزعيم القبيلة 50 الف دينار والمقاتل البسيط الف دينار وهو الذي لايعرف حتى شكل الدينار ولونه. وعليه فلا بد من تصور التحولات التي طرأت بين ليلة وضحاها على القبائل البدوية – فأزدادت أعداد الأثرياء وزاد معهم البذخ بصورة مفاجئة وولد مايمكن أن يشبه بالكمين والفخ للروحانية الأسلامية الأولى التي حاربت الذهب والفضة بداية.

. وبوفاة علي حرم المؤرخين والفلاسفة من رؤية أول نموذج يجمع روحانية عيسى وجمهورية افلاطون الفاضلة في دولة يقف على راسها حاكم مثالي كعلي يؤمن ويسعى ليطبق مبادئ العدالة الألهية على الأرض، كما قرؤوها في الكتب المقدسة وكتب الفلسفة و بشربها الدعاة الى الله . أن تجربة علي في الحكم قد أظهرت وبشكل قاطع ان دافع الثروة والنفوذ كان اقوى من دافع الروحانيات والعدالة الربانية، وهذا ما حاول علي ايقافه ، وجرى ما جرى في زمنه من حروب لمنعه من ذلك، ولكنه نجح في ترك بصمة روحانية خالدة في الدين الجديد انجبت المتصوفة والمعتزلة والفلاسفة والثوار على النظم الأجتماعية الفاسدة . ويمكن القول، وبصورة أدق، أن عليا كان علماني المنهج روحاني الفكر، وبأعماله وخطبه التي جمعت تحت اسم «نهج البلاغة» كان قد وضع أول اللبنات في تاسيس وقيام حركة التنوير الأسلامي التي دامت 600 عام بعده وأتخذت من العقل منهجا لها ومن الروحانيات أغناء لمحتواها . ومن الملفت أن رجال الدين الرسمي يعمدون الى تقليل دور علي، واعتباره واحدا من الخلفاء لأأربعة بعد النبي وفقط ،وبعضهم ربما يتهمه ان فترة حكمه أدت لأنقسام الأمة ، ولاذكر له بانه الأمام العقلي والروحاني للأسلام كله. ومثلهم مواقف رجال الدين المتشيعين لعلي فهم من ترك التراث الروحاني الفلسفي العظيم لعلي، وتصويره انه الأحق بالخلافة وكانه كان طالب سلطة وقد ظلم دونها، تاركين جوهر الموضوع: وهو صراع علي ضد أستغلال الدين لتمرير مصالح النخبة والثروة والنفوذ، وأقامة العدالة الأجتماعية الألهية التي من أجلها أساسا أتى الأسلام كدين جديد، كما أدعاه محمد بداية في مكة ، واصر علي على تطبيقه ، وربما كانت تلك أول تجربة أنسانية يحلم بها البشر.باقامة المدينة الفاضلة.

7. قراءة لنشأة عصر التنوير الأسلامي بفضل الفلسفة الأغريقية

أقامت فتوحات القبائل من الجزيرة،وتحت راية نشر الأسلام ، أمبراطورية جديدة على ارض شعوب ذات حضارات عريقة (شعوب بلاد الرافدين وفارس والشام ومصر) ، وفيها حواضر ومدن كبيرة كانت تضم جيشا كبيرا من المثقفين والكتّاب والفلاسفة والحرفيين متوارثة عن امبراطوريات سابقة منذ فجر التاريخ (تعد ارض الرافدين مثلا خمسة أمبراطوريات عظيمة انشأها السومريون والأكديون والبابليون والأشوريون والفرس).والشيئ الحسن الذي قامت به القبائل البدوية الغازية ، أنها أستقرت خارج المدن ، مكتفية بما كسبت من الغنائم والسبايا ومدخول جند من بيت المال ،وتركت امور العلم والثقافة والحرف والعمران لأهلها.

وباستقرار الأمور السلطوية، خصوصا زمن العباسيين شهدت الحركة الفكرية خلال سبعة قرون نهضة شاملة في كل مجالات المعرفة و الفن والعلوم والعمارة والهندسة والرياضيات والطب والجغرافيا، قام بها سكان البلد المتحضرة المفتوحة بدء من الهند الى فارس واسيا الوسطى وبلاد الرافدين وسوريا ومصر والمغرب والأندلس. حيث كان من اهم معالمها أحلال العقل والمعرفة وتحريرهما من خرافات الدين، وجرت تحديدا بتاثير مباشر من الفكر والفلسفة اليونانية ، . وهي، كمثيلتها الأوربية (التي تلتها بعد 7 قروبعد ذلك ولليوم) إنما أنطلقت بتاثير من الفكر والفلسفة اليونانية والأبداع العقلي العظيم لروادها مثل سقراط زأفلاطون وأرسطو وديمقريطس واقليدس وغيرهم من الفلاسفةوالعلماء العقلانيين الأغريق.

لقد أنطلقت شرارة الحركة التنويرية الفكرية من البصرة تحديدا وكانت تدعى نيسابور ولحد اليوم توجد هذه المدينة التي تبعد قرابة 30 كلم عن البصرة حاليا (قرب عبادان جنوب ايران) ، كونها كانت ملجأ للفلاسفة اليونانيين وتلامذتهم بعد مطاردتهم من الرومان وانتقلوا من أثينا الى الأسكندرية في مصر، ومن هناك طردهم مسيحيو روما الجدد، فيما يعرف تاريخيا بحريق أكاديمية الأسكندرية الكبير الذي اقامه المسيحيون المتشددون لحرقهم مع كتبهم و اتهام الفلاسفة بالهرطقة ضد تعاليم الرب ويسوع المسيح. وهرب الفلاسفة وتلاميذهم ، مع ماأستطاعوا أنقاذه من كتبهم، ولجأوا الى ملك فارس الذي خصهم بحرية الفكر وخصص نيسابور مركزا لهم . وانضم اليهم علماء بابل ومعمارييها ، مما ساعد على استمرار الفكر والفلسفة والعلم في نيسابور على غرار «أكاديمية أفلاطون» ، وأنتجت اسماء مشهورة مثل بطليموس واقليدس وفيثاغورس في العلم الهندسي . ولكن الأهم، ان في هذه «القرية الفكرية» جرى ترجمة ماأمكن أنقاذه من الأعمال الفلسفية الهيلينية لسقراط و أرسطو وافلاطون من الأغريقية الى اللغة ألأرامية البابلية والتي كانت لغة العلم والتدوين الرسمية في مملكة الفرس الحاكمة لبابل ذلك الوقت. وكان اللاجئون الى نيسابور ، ومن كل الأطياف ، يستفيدون من التسامح الفكري الذي وفره لهم ملوك الفرس بعدما حرمت عليهم روما المسيحية تعاطي ونشر تعاليم الفلسفة اليونانية باعتبارها هرطقة مضادة للفكر الألهي المجسد في العهدين القديم والجديد . واعتبر ملوك فارس أن نيسابور (أوالبصرة فيما بعد) منطقة فكرية حرة تنتج الفكر والمعرفة دون رقيب على غرار ما توجد اليوم مناطق تجارية حرة من دون ضرائب.

وقد استمرت البصرة وجنوب فارس بتقاليدهما تلك بعد الفتح الأسلامي، حيث انجبت المعتزلة ،أهم فرقة علمانية عقلية في الأسلام قبل نهاية القرن الهجري الأول (قرابة 700 م). تقوم على اعتزال النظريات الدينية والسلطوية السائدة في تفسيرتعاليم ومفاهيم الدين والخلق و الأخذ بالعقل والمنطق والواقع لفهم الأنسان والخالق والمجتمع . وكان شعارا المعتزلة ومنهجهم الأساس يقوم على «ان « العقل من صنع الله وعليه وجب أتباعه لأنه من صنع الله والتقاليد الدينية من صنع البشر فهي غير واجبة الا بقدر ما تتناسق مع مايقبله العقل والحكمة والمنطق والواقع »، وهو منهج علمي واضح وعلماني كما يدعى اليوم.

لقد كانت أهم محاور اهتمام المعتزلة ايجاد دلائل عقلية لتفسير الوجود، والوحي ، وهل أن القران مخلوقا ام كان ازليا، وتعليل النبوة واسبابها وغيرها من المسائل الفلسفية والفكرية التي كانت جديدة على الفكر العربي. ان ولادة الفكر العقلاني المعتزلي ومدارسه المختلفة قد خلق الظروف لأنتشار الفكر العقلاني «اي العلماني» في صفوف أعالي السلطة، ووصل ألأمر ان اصبح الخليفة العباسي السايع ، المأمون، معتزليا واسس دار الحكمة لتعنى بشؤون ترجمة الفكر اليوناني من الأرامية الى العربية ، وكان يكيل وزن الكتب ذهبا لمترجميها.

مما خلق الجوالفكري الملائم لتطور الفلسفة والعلوم بعيدا عن التقاليد والقيود الدينية. وأضحت حرية الفكر والبحث مكفولتان، بل ومكافئتان من مركز الأمبراطورية الأسلامية في بغداد، حيث وصلت فيها مكافاة الكتاب بما يعادل وزنه ذهبا؛ بل والسماح بترأس دار الحكمة في بغداد لفلاسفة مسيحين، ومنهم حنين بن اسحق، ويعقوب ابن اسحاق الكندي الذي ولد وترعرع في البصرة. وأنتقل الفكر من مرحلة الترجمة والتعريف بالفلسفة الهيلينية ، الى مرحلة التفسير ، لتنطلق من بعدها حركة الأنتاج والـتأليف الفكري والفلسفي، اي دورة فكرية متكاملة أستطاع العلماء والفلاسفة في المنطقة من انتاج فكر فلسفي ورياضي كالذي كان في أثينا نفسها ايام مجدها. وخلال مرحلة التفسير، قام العشرات من المفكرين والفلاسفة بمناقشة أطروحات سقراط وارسطو وافلاطون وانتجت أعمالا مثل اعمال الفارابي « المدينة الفاضلة» على غرارعمل أفلاطون «الجمهورية الفاضلة» ، ثم الى مرحلة التأليف وظهرت أعمال الشيخ الرئيس ابو علي ابن سينا مثل « الفلسفة المشرقية» التي اسست لفرع جديد في الفلسفة تجمع الهيلينية العقلية بالروحانية المشرقية. وبتحرير العقل ، ظهرت الأعمال والمؤلفات من الفلاسفة والعلماء في فنون الرياضيات والموسيقى والكيمياء والجغرافية والطب والتي أسست لفصل العلم الحديث عن الدين.

لقد نجحت حركة التنوير ي في فصل العلم عن الدين ، ولكنها لم تنجح في فصل الدين عن السلطة والدولة مثلما قامت به حركة النهضة والتنوير الأوربية التي تلتها مباشرة وكأمتداد طبيعي لها. لقد تم التعرض لرواد الحركة النهضوية الأسلامية من الفلاسفة والعلماء من قبل الملوك ورجال الدين حيثما وجدوا ان العلم والفلسفة تهددان السلطة، كما حدث زمن المتوكل و الواثق، حيث طاردا المعتزلة والمفكرين تحت اسم محاربة الزنادقة والملحدين، حين شعر ان تطور العلم والمعرفة باتا يشكلان تهديدا للسلطة، خصوصا أن الخليفة الذي سبقهما ، المأمون، قد أصبح نفسه معتزليا (اي ياخذ بالمنهج العقلي وليس الديني). والواقع ان المتوكل ومن بعده الواثق كانا أول قامع رسمي زمن العباسيين للفكر والفلسفة، وللمعتزلة والتشيع، والواثق هو الذي امر بتبني المذاهب الأجتهادية الأربعة وسماها مذاهب اهل السنة والجماعة ، لتحل محل الفكر، علما انه رفض المذهب الشيعي الجعفري بعد ان كانت جميع المذاهب تشكل جبهة واحدة أمام الملوك يمكن ان تسمى مدارس الفقه الأمامية، والتي نشات منذ زمن الأمويين للوقوف بوجه الحكام الأمويين وقامت بتفهيم الناس تعاليم دينهم خارج مدرسة الحكم والسلطة الأموية.

أن حركة التنوير الفكري التي ظهرت منذ القرن ألأول الهجري(الثامن الميلادي) واستمرت 700 عام غطت جميع اجزاء و اقاصي الدولة الأسلامية، حيث شارك فيها رواد الفكر من الفرس من خراسان والأتراك من اسيا الوسطى والعرب والكلدان في العراق والسريان في حلب والشام والأقباط في مصر والبربر من شمال افريقيا والعرب واللاتين في اسبانيا، ووضعت مناهج حديثة للعلوم والموسيقى والرياضيات والفلك والطب والفلسفة وعلم الأجتماع ، جميعها خارج اطار الدين وماألصق به من خرافات. وأسست لكل العلوم الحديثة التي نعرفها اليوم . وانتهت هذه الحركة التنويرية في المنطقة بسقوط الدولة العباسية على يد المغول بقيادة هولاكو في القرن الثالث عشر (عام 1258 م)؛ وفي الأندلس حتى اواسط القرن الخامس عشر (يسقوط غرناطة عام 1453) ، ولكن ديناميتها أستمرت وأنتقلت الى اوروبا اللاتينية المسيحية، حيث كانت جسرا لنقل العلوم والفلسفة من اليها، وهو ما مهد لولادة عصر التنوير والنهضة الأوربية. وتحديدا في الأندلس بدأ ت نفس الدورة التي بدأتها البصرة ، حيث تم ترجمة أعمال الفلاسفة اليونان من العربية الى اللاتينية، ومنها بدات حركة التفسير ثم التاليف والأنتاج. ويمكننا موضوعيا القول ان حركة البشرية الصاعدة بدأت من فلاسفة اليونان الى المعتزلة الى الفلاسفة والعلماء المسلمين في بغداد والأندلس ثم الى فلاسفة عصر التنوير في اوروبا بعد نهوضها من القرون الوسطى وانهاء حكم الكهنوت، فجميعها تنتمي لحركة ومدرسة واحدة ، تتبع قوة العقل والعلم وتطوير المعرفة بعيدا عن تسلط الأديان التوحيدية الثلاثة وسلطانها القمعي للفكر والتطور ألأنساني و الحضاري.

ناخذ ثلاثة نماذج ولفترات مختلفة لتتبع حركة السلطة ورجال الدين ضد الفلاسفة ورواد العلم زمن الخلافة العباسية . فرغم أن الكندي، مثلا، أوضح فائدة الفلسفة في الإجابة على الأسئلة ذات الطابع الديني، إلا أن العديد من رجال الدين عارضوا أفكاره الفلسفية تلك تلك، باعتبارها "علمًا أجنبيًا". و الاستنتاجات التي توصل إليها من الفلاسفة اليونان والتي أتهم أنها تتعارض مع الدين كان أهمها خطأ الاعتقاد في خلود الكون مع الله، وإنكار بعث الجسد، والقول بأن الله على علم بالمسلمات المجردة فقط، وليس بالأمور الخاصة ، ومثلها من الفكار قد عرضته للأضطهاد في نهاية حياته ،خصوصا عندما تولى المتوكل على الله الخلافة ،الذي كان عكس المامون والمعتصم، متدينا ويأخذ بفكر الأشاعرة. والمتوكل بدأ في اضطهاد المدارس الفكرية وحارب المعتزلة والفلاسفة وأغلق دار الحكمة ، وتعرض الكندي للانتقاد ثم للأبعاد ثم العزل التام بتهمة انه أفسد الذمم وأعتبر"العقل" جوهر التقرب لله.
مثال أخر على القمع الديني قد نال الحلاج ، ابو الحسين بن علي ، وهو متصوف وعلى جهاد مع النفس واعتبر التصوف ليس مسلكاً فردياً بين المتصوف والخالق فقط، بل منهجا حياتيا . لقد طور الحلاج النظرة العامة إلى التصوف، فجعله جهاداً ضد الظلم والطغيان في النفس والمجتمع . ونظراً لما لتلك الدعوة من تأثير على السلطة السياسية الحاكمة في حينه فقد جرى اتهامه بالزندقة وجرى أعدامه على صليب وسط بغداد زمن المقتدر بالله، لأنه حاول نقل التصوف الى حالة جهادية ضد التسلط والأنتقال الى الحرية . وقد قال به ابن تيمية «مَنِ اعْتَقَدَ مَا يَعْتَقِدُهُ الْحَلاجُ مِنَ الْمَقَالاتِ الَّتِي قُتِلَ عَلَيْهَا فَهُوَ كَافِرٌ مُرْتَدٌّ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ ; إنَّمَا قَتَلُوهُ عَلَى الْحُلُولِ وَالاتِّحَادِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ مَقَالاتِ أَهْلِ الزَّنْدَقَةِ وَالإِلْحَادِ كَقَوْلِهِ: أنا الله. وَقَوْلِهِ : إلَهٌ فِي السَّمَاءِ وَإِلَهٌ فِي الأَرْضِ...و كَانَتْ لَهُ مخاريق وَأَنْوَاعٌ مِنَ السِّحْرِ (اي الفلسفة والتصوف) وَلَهُ كُتُبٌ مَنْسُوبَةٌ إلَيْهِ فِي السِّحْرِ. وَبِالْجُمْلَةِ فَلا خِلافَ بَيْنِ الأُمَّةِ أَنَّ مَنْ قَالَ بِحُلُولِ اللَّهِ فِي الْبَشَرِ وَاتِّحَادِهِ بِهِ وَأَنَّ الْبَشَرَ يَكُونُ إلَهًا وَهَذَا مِنَ الآلِهَةِ: فَهُوَ كَافِرٌ مُبَاحُ الدَّمِ، وَعَلَى هَذَا قُتِلَ الْحَلاجُ.

وخلال فترة حكم الأمير المنصور الموحدي كاد له بعض المقرَّبين من رجال الدين للأمير، ضد ابن رشد ، فأمر بنفيه، وأحراق كتبه، وأصدر منشورًا إلى المسلمين كافَّة ينهاهم عن قراءة كتب الفلسفة، أو التفكير أو الاهتمام بها، وهَدَّد مَنْ يُخَالِف أمره بالعقوبة

8. قراءة في حال الأسلام المعاصر

ما ان انتهى عصر التنوير العلمي في القرن الثالث عشر الميلادي في بغداد، وأمتداده حتى القرن الخامس عشر في الأندلس، حتى دخلت المنطقة ومعها الأسلام في عهد العصور المظلمة التي مازالت الى اليوم، فلا علم ظهر؛ ولا فكر برز؛ ولا عقل أجتهد طوال ستة قرون، بل حلت محلهما الخرافات الدينية ،والجهل، وسلطات دينية متزمتة تفتي بما تشاء وتقمع الفكر حتى وإن لم يكن قد اعترض أو اجتهد.
بلاشك كانت مرحلة التنوير فرصة نادرة في التاريخ الأسلامي، كاد المجتمع الأسلامي ان يدخل بعدها الى عصر المدنية الزاهرة، لو لم تسقط بغداد وبعدها الأندلس .وبسبب انخماد حركة التنوير وصلت المنطقة الى القرن العشرين ومجتمعاتها كجثث خامدة مخدرة. ولليوم تؤمن انها تعيش لتعبد، ولاتعيش لتعمل وتجتهد بالعقل الذي اكرمه الله للأنسان ليستخدمه في البناء واعمار الأرض التي ائتمنه عليها.
وتقلصت المدن الحضرية واضحت مبعثرة، ومحاصرة ، ويعمها الجهل، وتحكم من قبل رؤساء القبائل ومن رجال الدين الذي مازالو يحرضون على التجهيل ومحاربة الحريات والعقل والتحديث. ورغم بروز شخصيات بداية القرن العشرين تطالب بالأصلاح وانهاء الأستبداد مثل جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبدة و عبد الرحمن الكواكبي ولكنهم فشلوا بتحويلها الى حركات دائمة ذات اهداف واضحة باقامة مجتمعات العقل والعلم والعمل.
وكانت الفرصة الضائعة الأخرى بعد هي فشل التيارات العلمانية في المنطقة منتصف القرن العشرين من القيام بثورة تنويرية فكرية عندما اتيحت لها الفرصة بعد قيام دول مستقلة، وإدخال المستعمرين الأوربيين مفاهيم الدولة والمؤسسات و الجامعات والمدارس الحكومية اليها، وهي التي ساعدت في خلق طبقة مثقفة جديدة كانت قادرة على وضع المجتمع على سكة التقدم والحضارة خصوصا في العراق ومصر وسوريا وايران. ولعل سبب فشلها هو نقل التيارات الأيديولوجية السائدة في اوروبا اواسط القرن العشرين نقلا ميكانيكيا الى المجتمعات العربية والأسلامية سواء اليسارية الماركسية منها أو القومية ، ولم تبرز أحزاب وحركات ليبرالية تؤمن بحرية الفرد كما في المجتمعات العلمانية الغربية ، وادت التوجهات الأيديولوجية لأحلال ألأنقلابات العسكرية وأقامة انظمة ديكتاتورية قامعة للحريات وللأصلاح المدني والفكري ومنعته من اقامة مؤسسات تمثيلية مستقلة كالبرلمانات والأحزاب، بل برز قادة واحزاب حكمت على طريقة القرون الوسطى، فالحاكم هو كل السلطة. وبفشل ما يسمى بالعلمانية العربية والأسلامية ، خرج القمقم أخيرا من كهفه وطرح البديل الأسلامي الذي إدعا ان «الأسلام هو الحل » على اعتبار ان المجتمعات العربية والأسلامية قد جربت الأشتراكية والقومية وانتجت الديكتاتوريات، وهاهي اليوم تطرح الأسلام بديلا وحجتها بيدها : لقد نجح الأسلام في السابق، ويمكنه اليوم ان يقوم بذلك اذا اتبع الأسلام الصحيح. أنهم بتناسون ان عصر التنوير الأسلامي مدين فقط للعلماء الذين عملوا على احياء أعمال الفلاسفة الأغريق ، وليس على يد علماء الحفيظ . وعموما فالأسلام الأيديولوجي لا يختلف عن الأتجاهات السياسية المؤدلجة ، فهي تقمع الشعوب والفكر باسم مصالح الطبقة العاملة (كما حال الأحزاب الماركسية)، أو باسم مصالح الأمة العربية (كما هو حال الأحزاب القومية العربية) ، وأخرها باسم الله ومصالح الدين (كما هو حال الأحزاب الأسلامية)، فجميعها تؤدي لسلطات قامعة ولا تؤمن بحرية الأنسان وبصيرورته وحقوقه وهويته الخاصة به والتي هي جوهر الأنظمة العلمانية الليبرالية التي وضعت الفرد ومصالحه فوق الأيديولوجيات التي تحكم باسم الجماعة سواء كانت طبقة أوالأمة أوالدين .
والواقع ان مايشيرون له من نجاح الأسلام في القرون السالفة لم يكن على يد خلفاء وحكام ورجال دين ، بل أنها حركة التنوير التي اعتمدت العقل والعلم واقامت صروح الحضارة التي سميت أسلامية في فارس وبغداد وبخارى والأندلس، وهي لم تكن كذلك ، بل كانت حركة تنوير علمي بفضل العقل والتعرف على الفلسفات الأنسانية ، وخصوصا الأغريقية.

لاننسى ان من رحم حركات البديل الأسلامي، خرجت حركات راديكالية متطرفة مثل التكفير والهجرة ، والقاعدة وداعش، و مارست ارهابا غير مشهودا حتى في القرون الأولى باسم الله ورسوله، ويستشهدون بنفس الأيات القرأنية وسيرة النبي لتبرير ارهابهم الدموي. أن البديل الأسلامي يسفه الفكر والعقل الأنساني بحجة ان هناك شريعة الهية جاهزة ، ولم علينا الأخذ بشرائع وضعية ، أو أجنبية من أعداء الأسلام في امريكا وأوروبا ،مادمنا نمتلك شريعة الهية وكأن امريكا واوروبا وثنيتان ولا تعرف الشرائع السماوية والألهية، ولم يجربوها سابقا. إنهم يريدون ايقاف عجلة التاريخ والعودة الى الوراء، وكأن البشرية لم تتقدم منذ الفي عام ، ولم تتعلم دروسها من تجارب مريرة لتصل الى نتائج ان فصل الدين عن الدولة يشكل بالضبط نقطة البداية لأقامة مجتمعات أخلاقية وعقلانية، قادرة على التطور، كما كان الحال ابان عصر التنوير الأسلامي في المنطقة سابقا. ان اي فكر مؤدلج سواء كان باسم الرب والأنبياء الصالحين او باسم القادة الثوريين والقوميين سواء بسواء، يؤدي الى ديكتاتورية وتخلف، فالحضارة والتقدم تقوم على اساس المؤسسات المنفتحة ، المحايدة بين الأطراف السياسية، غير المؤدلجة ، وتاخذ بالعلم والعقل والتنظيم ، ولا تدين بدين او ايديولوجية وضعية متطرفة كالقومية او الدينية . وللوصول لهذا الهدف، لابد من العلمانية والليبرالية أن تأخذا طريقهما في المجتمع كي يبدأ الأصلاح الديني والأقتصادي والأجتماعي المرتقب.

والمسألة الأكثر الحاحا اليوم ،هي بناء دولة كفوءة للمواطنة تقوم على فصل الدين عن الدولة وتطوير العلم والمعرفة والأنتاج وتحويل الحكومة من جهاز حاكم الى جهاز خدمي قابل للمحاسبة والتغيير. وبدون ذلك لاتوجد فرصة للمجتمعات العربية والأسلامية للنهوض من جديد وستبقى محكومة بالأرهاب الديني وبالركود والتخلف عن الركب الحضاري والأنساني.

رسم يُظهر تنفيذ الإعدام بحق منصور الحلاج

التصوف عند الحلاج جهاد في سبيل إحقاق الحق، وليس مسلكاً فردياً بين المتصوف والخالق فقط. لقد طور الحلاج النظرة العامة إلى التصوف، فجعله جهاداً ضد الظلم والطغيان في النفس والمجتمع ونظراً لما لتلك الدعوة من تأثير على السلطة السياسية الحاكمة في حينه وبأسم الله اعدم الحلاج

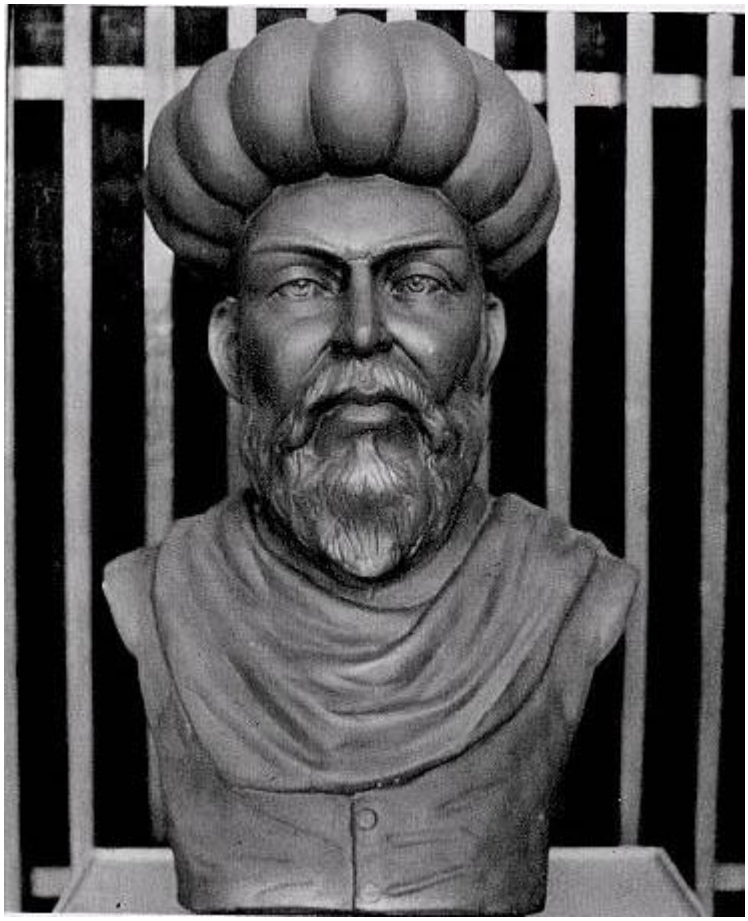

أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندي، المسيحي التدين، و الفيلسوف الكوفي الأصل (باللاتينية: Alkindus)

كان الشاغل الذي شغل الكندي في أعماله الفلسفية، هو إيجاد التوافق بين الفلسفة اليونانية و العلوم الدينية. تناول الكندي في الكثير من أعماله مسائل فلسفية دينية مثل طبيعة الله والروح والوحي وقام بالأشراف على ترجمة اعمال افلاطون وارسطو للعربية عندما أعتمده الأمامون مشرفا على بيت الحكمة

أول من أدخل بنجاح الفكر الأرسطي والأفلاطوني المحدث إلى الفكر الفلسفي الإسلامي، فكان ذلك عاملاً مهمًا في إدخال تعميم الفلسفة اليونانية إلى الفكر الفلسفي الإسلامي زومن خلال ترجمته للعديد من النصوص الفلسفية الهامة، أدخل الكندي الكثير من المفردات الفلسفية إلى اللغة العربية. قطعًا، لولا أعمال الكندي الفلسفية، لما تمكن الفلاسفة مثل الفارابي وابن سينا والغزالي من التوصل إلى ما توصلوا إليه

رأى الكندي أن النبوة والفلسفة طريقتان مختلفتان للوصول إلى الحقيقة، وقد فرّق بينهما في أربعة أوجه. أولاً، في الوقت الذي يتوجب على الشخص أن يخضع لفترة طويلة من التدريب والدراسة ليصبح فيلسوف، فإن النبوة يسبغها الله على أحد البشر. ثانيًا، أن الفيلسوف يصل إلى الحقيقة بتفكيره وبصعوبة بالغة، بينما النبي يهديه الله إلى الحقيقة. ثالثا، فهم النبي للحقيقة أوضح وأشمل من فهم الفيلسوف. رابعا، قدرة النبي على شرح الحقيقة للناس العاديين، أفضل من قدرة الفيلسوف. لذا استخلص الكندي أن النبي يتفوق على الفيلسوف في أمرين السهولة والدقة التي يتوصل بها للحقيقة، والطريقة التي كان يقدم بها الحقيقة للعوام. ومع ذلك، فكلاهما يسعى لهدف واحد. لذا، يرى الباحثون الغربيون، أن الكندي وضع فوارق بسيطة بين النبوة والفلسفة.[49][50]
إضافة إلى ذلك، نظر الكندي للرؤى النبوية من وجهة نظر واقعية، فقال أن هناك بعض النفوس "النقية" المعدة إعدادًا جيدًا، قادرة على رؤية أحداث المستقبل. لم يربط الكندي تلك الرؤى أو الأحلام بوحي من الله، لكن بدلاً من ذلك قال أن التخيل يجعل الإنسان قادرًا على إدراك "هيئة" الأشياء دون الحاجة إلى لمس الكيان المادي لتلك الأشياء. لذلك، فإن أي شخص نقي النفس سيكون قادرًا على رؤية مثل تلك الرؤى. هذه الفكرة على وجه التحديد، من بين كل التفسيرات الأخرى للمعجزات النبوية التي هاجمها الغزالي في كتابه "تهافت الفلاسفة".[51]

The Christian physician Hunayn ibn Ishaq led the House of Wisdom
أول من تراس دار الحكمة هو الطبيب المسيحي حنين بن أسحق وتلاه الكندي

The eye, according to Hunain ibn Ishaq. From a manuscript dated circa 1200.

Old picture of Al-Farabi, great philosopher and musician

سمي الفارابي "المعلم الثاني" نسبة للمعلم الأول أرسطو حيث هو شارح مؤلفات أرسطو المنطقية

التمييز الذي قام به الفارابي بين النبي من ناحية والفيلسوف من ناحية: المعرفة تكون بتجريد المعاني الكلية من المحسوسات، النبي والفيلسوف كلاهما يتلقى حقائق وينقلها للآخرين. يقول الفارابي أن معرفة الحقائق القصوى كلها مصدرها الله لكن فرق بين حقائق النبي وحقائق الفيلسوف فالفيلسوف يتلقى الحقائق بواسطة العقل الفعال فتكون طبيعتها عقليه وليس حسية، الرسول تأتيه المعارف منزلة من عند الله بتوسط الملك جبريل ويتلقى الوحي بالمخيلة ثم يتم تحويل الصور المتخيلة إلى صور ومعاني تنقل للناس. المعارف النبوية هي معارف المخيلة أساس فيها.

Latin manuscript of Al-Farabi book “ Encyclopida of Sciences” made by Girardo Krimoni around mid 15th Century

ترجمه لاتينية لـ كتاب الفارابي "إحصاء العلوم" ترجمة جيراردو الكريموني منتصف القرن 15.

An Arabic manuscript from the 13th century depicting Socrates (Soqrāt) in discussion with his pupils

لوحة تمثل الهام تلامذة الفلسفة العرب بمناقشة بسقراط وأفكاره

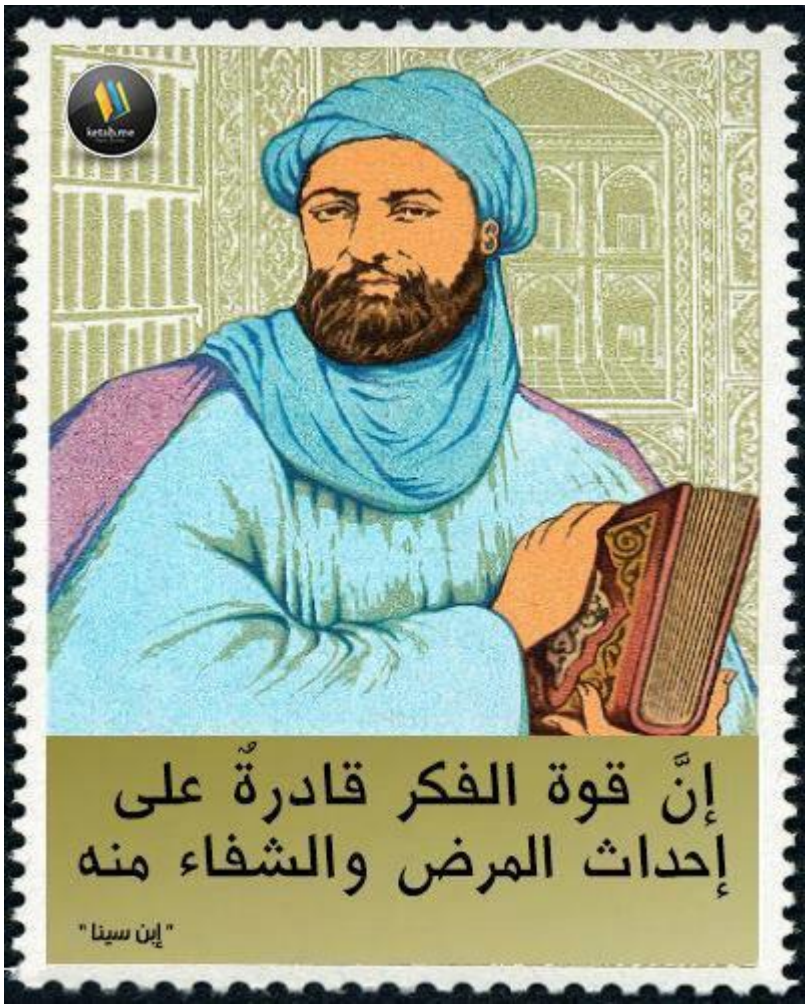

Ibin Sina, founder of the modern school of medicine, was influential in the rise of medical sciences and secular thoughts in Western Europe in the period 11 to 18 centuries

سمي ابن سينا بالشيخ الرئيس لأنه أول من وضع اسس الفلسفة المشرقية التي تجمع العقل والروح معا قياسا بالفلسفة الهيلينية التي تاخذ بالعقل والفكرة في جوهر صياغاتها

copy of Ibin-Sina famous book Al- kanoon in Medicine (the Bible of Mediciane) in Arabic around 1015 B.C. that lasts as the main source for medical education till the 19 th Century

نسخة من كتاب القانون في الطب لأبن سينا تعود لعام 1015 م واستمرت قرابة القرن التاسع عشر كمصدر اساس في اوروبا للمعررفة الطبية

Averroes Statue in Ankara, Turkey
نصب ابن سينا في جامعة انقرة، تركيا

Statue of al-Khwarizmi in front of the Faculty of Mathematics of Amirkabir University of Technology in Tehran,]IRAN

نصب للخوارزمي امام كلية الرياضيات لجامعة أمير كبير التكنولوجية –طهران ، ايران

طابع بريدي أصدره الاتحاد السوفييتي عام 1983م
في الذكرى 1200 لميلاد الخوارزمي.

صفحة من كتاب المختصر في حساب الجبر والمقابلة

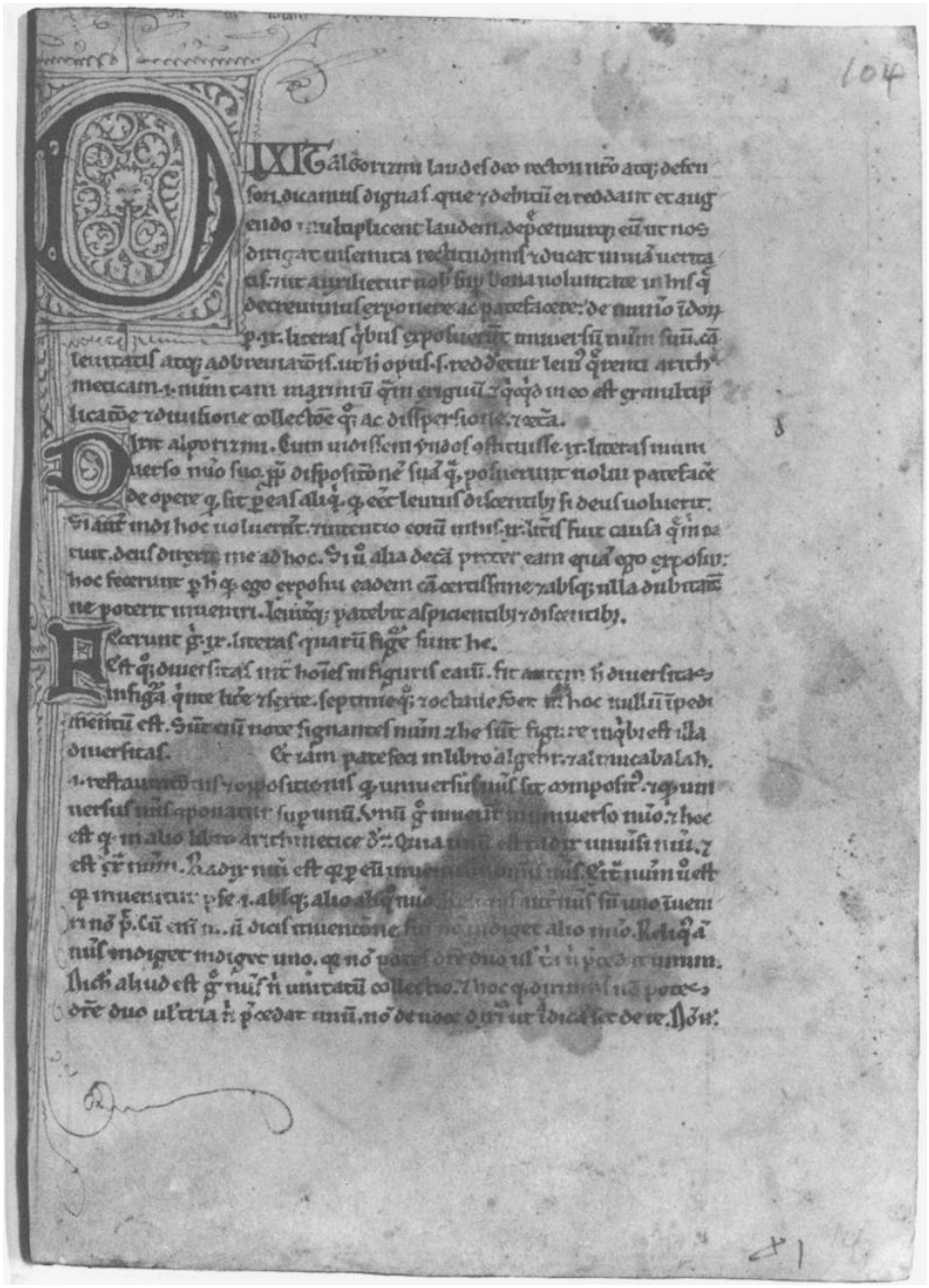

A page of Latin translation manuscript started with “Algorizmi dixit” means “Said.

صفحة من كتاب الخوارزمي مترجمة الى اللاتينية تبدأ بعبارة «قال الخوارزمي»

صفحة من الترجمة اللاتينية، والتي تبدأ بـ") "algorizmi dixitتعنى "قال الخوارزمي”

The Alhambra, constructed by the orders of the first Nasrid emir Ibn al-Ahmar in the 13th century

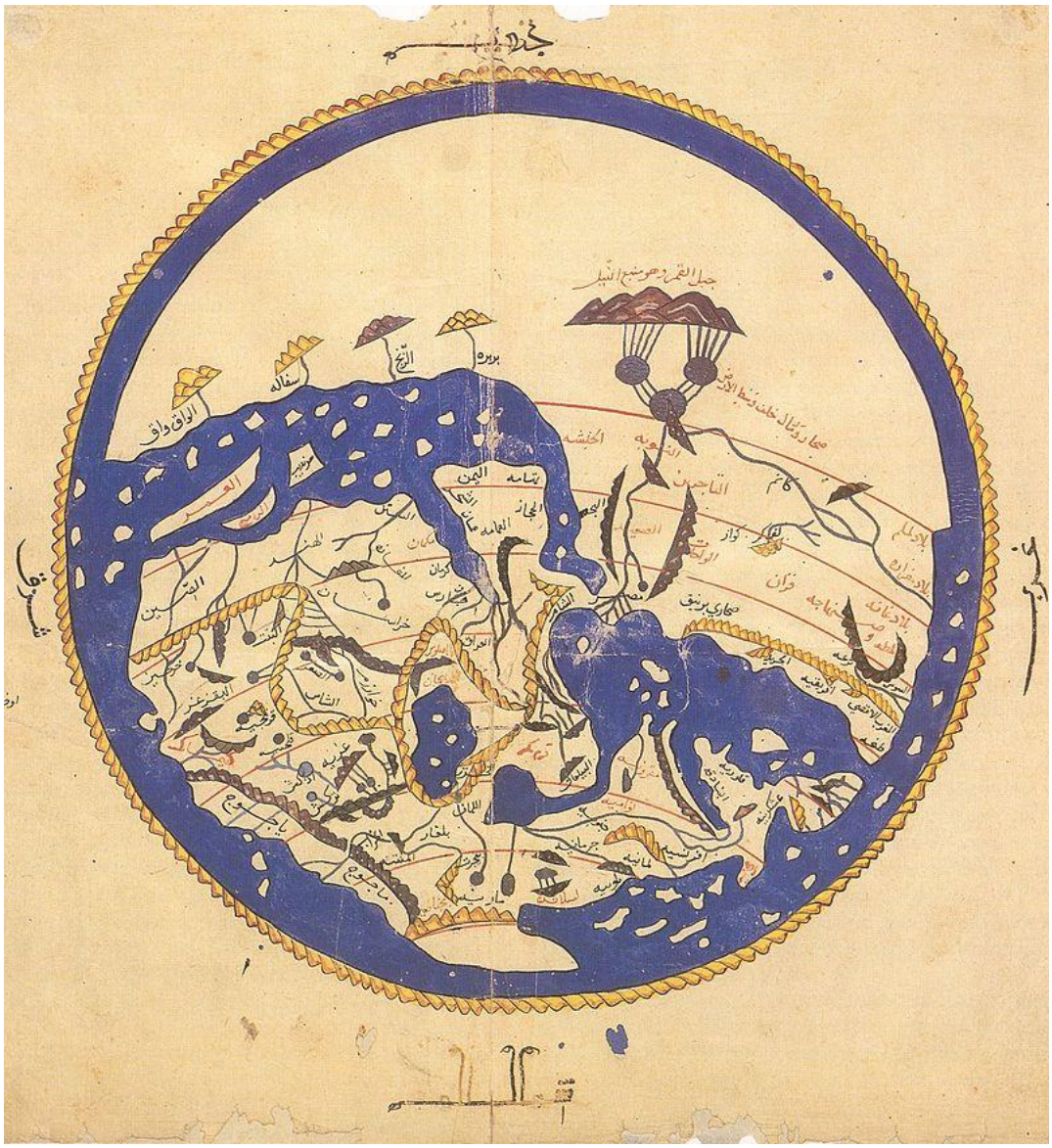

Introductory summary overview map from al-Idrisi's 1154 world atlas (note that South is at the top of the map).
خارطة العالم للأدريسي الأندلسي تعود لعام 1154 م

Averroes, (Ibin Rushd) founder of the Averroism school of philosophy, was influential in the rise of secular thought in Western Europe. Detail from Triunfo de Santo Tomás by Andrea Bonaiuto, 14th century

على الرغم من ردود الفعل السلبية من رجال الدين اليهودي والمسيحي إلا أن كتابات ابن رشد كانت تدرس في جامعة باريس وجامعات العصور الوسطى الأخرى، وظلت المدرسة الرشدية الفكر المهيمن في أوروبا حتى القرن السادس عشر الميلاديوقد قدم كتاب «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» تبريراً للتحرر من اللاهوت الأشعري تجاه العلم والفلسفة، وبالتالي اعتبرت الرشدية تمهيداً للعلمانية الحديثة.

كان العديد من اللاهوتيين المسيحيين يخشون فلسفته حتى أنهم إتهموه بالدعوة إلى "الحقيقة المزدوجة" ورفضه المذاهب التقليدية التي تؤمن بالخلود الفردي، وبدأت تنشأ أقاويل وأساطير واصفة اياه بالكفر والإلحاد في نهاية المطاف، فقد ذَمُّوه بكل شفة ولسان، وطعنوا عليه أقبح طعن؛ فقد قال عنه بترارك: «إنه ذلك الكلب الكلِب الذي هاجه غيظ ممقوت؛ فأخذ ينبح على سيده ومولاه المسيح والديانة الكاثوليكية». وأما دانتي فقد جعله في هدوء ووقار يتبوَّأ مقعده في الجحيم جزاء له على كفره واعتزاله.

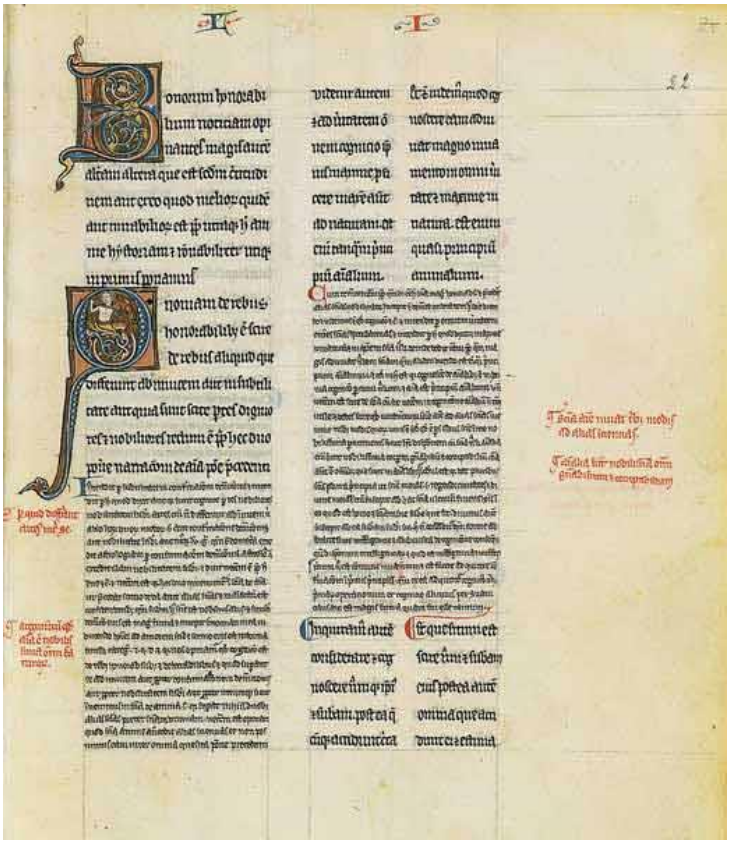

French Manuscript (mid 13th century) of Averroes “Ibn Rushd” interpretation of Socrates concepts,

شروح ابن رشد لكتاب أرسطو "عن الروح"، مخطوطة فرنسية، الربع الثالث من القرن الثالث عشر الميلادي

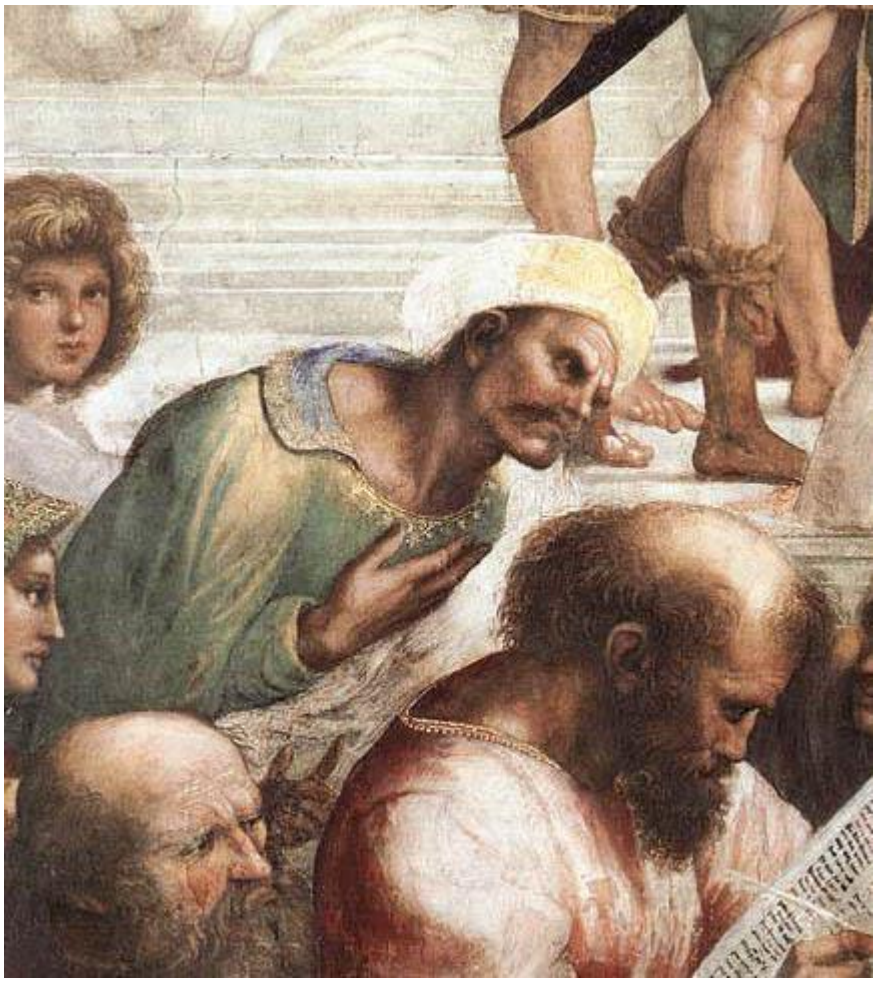

Averroes(Ibn Rushd) seminar , Rafaeel 1509 , Pontofitchi Palace, Vatican, Italy

ابن رشد، جزء من لوحة مدرسة أثينا، الفنان رافاييل، 1509 م، غرفة التوقيعات، قصر بونتفيتشي، الفاتيكان، روما، إيطاليا.

Averroes (Ibn Rushd) statue in Gordoba, Spain

تمثال لـ ابن رشد في قرطبة، إسبانيا

مناظرة بين ابن رشد والحجر السماقي، القرن الرابع عشر.

A Christian and a Muslim playing chess in 13th-century al-Andalus
مسلم ومسيحي يلعبان الشطرنج في القرن الثالث عشر في الأندلس

Image of a Jewish cantor reading the Passover story in al-Andalus, from a 14th-century Spanish Haggadah

لوحة تمثل كناس يهودي في الأندلس من القرن الرابع عشر تمثل التعايش قبل تشريدهم من قبل فرديناند وايزابيلا بعد سقوط الأندلس منتصف القرن الخامس عشر

الباب الرابع
الروحانية الفردية بديل أقرب الى الله من التدين

1. الروحانية والتدين مفهومان مختلفان بل ومتناقضان

يفضل الكثير من الناس اليوم أن يصنفوا أنفسهم روحانيين Spiritual و ليسوا متدينين Religious لأنهم يمارسون الروحانية في حياتهم اليومية ممارسة عقلية ، وقلبية وأخلاقية. فالروحانيون متجانسون مع الربانية ومع أنفسهم، ويعملون وفق مايعتقدونه أو وفق مايرتاحون اليه نفسيا وعقليا وضميريا « فألله كامن في ضمير الأنسان» كما يقول الكاتب المصري محمود عباس العقاد ، دون الحاجة لطقوس وشرائع وقصص الأديان الثلاث. أما التدين، فهو إلتزام بطقوس وعبادات وفق قواعد وضعتها الأديان على معتنقيها فالمتدين المسلم والمسيحي واليهودي يتبع طقوس وشرائع دينه ويقوم بها كفروض واجبة خوفا من العقاب الأليم، وليس بالضرورة عن فهم لهذه الطقوس. والسؤال هو: هل يمكن إعتبار كل المتدينين أناسا روحانيين ؟ والجواب هو كلاً ، بلاشك ؛ وأذا كان نعم ، فهوعلى درجة محدودة جدا، فبعض المتدينين روحانيين حقا ، حيث فهموا الربانية بالتسامح ، والمعرفة من خلال العقل وليس الوعظ الديني . وهذا عكس ما يتوقع أن تكون عليه الحال؛ حبث أن المتدين وفق تعريفه وجب أن يكون روحانيا أولا وقبل كل شيئ ؛ لأن الأساس في عبادة الله هو التطبع بالروحانية الربانية وتطبيقها في السلوك اليومي للأنسان؛ وهو أمر يبدو أن الأديان فشلت ولم تنجح به لحد اليوم؛ رغم إنها وجدت وبقيت فاعلة منذ الأف السنين وملأت الدنيا خلالها ضجيجا بأنها حاملة رسالة الرب للأنسان؛ ولكنها فشلت في مهمتها؛ ربما لأن الأديان خاطبت غرائز الأنسان وليس عقله كما فعلت الحضارة والعلمانية ونجحت فيه.

نمت الروحانية بشكل واسع في الغرب مؤخرا نتيجة للتطور العلمي والتكنولوجي الذي فرض على الأنسان الوحدانية (أي التغرب) ، وكذلك لحاجة الناس الى موازنة القلب والعقل ،وصار ملحا ان يشعر الناس باهمية العيش وفق القلب ، أضافة الى العقل والمنطق، في التعامل اليومي والأجتماعي. والروحاني لايلزم نفسه بتعاليم وطقوس لدين بعينه ،ولا ينحاز لأي منها، فهو يعتقد أن كل الطرق تؤدي الى الله ؛ وعليه يمكن ان تجد بين الروحانيين أناسا من مختلف الأجناس والثقافات والأديان، وتجد بينهم تفاهما روحيا سهلا ومتسامحا، متجاوزا عسر تفاهم المتدينين الذي أثبت الواقع أستحالته؛ خصوصا إذا كانوا من ديانات مختلفة، بل و حتى من ديانة واحدة ولكن ينتمون لفرق مختلفة فيه. والسبب ان الروحاني يحاول اغناء نفسه داخليا دون أن يطلب من الله ان يسكنه جناته او يجنبه ناره، أي إنه عقليا يؤمن ويقوم بما يريده الرب كونه مقتنع به . وقد قال علي ابن ابي طالب ، إمام العلمانيين، مقولة روحانية شهيرة « لم أعبدك طمعا بجنتك ولا خوفا من نارك» ، وعلي هنا قد استخدم مفهوم العبادة باعتبارها ليست طقوسا ، كما نراها اليوم ، بل عرفانا بالروحانية الربانية العليا التي ألهمها الله للأنسان.

والروحانية مفهوم فلسفي حول الحياة الهانئة على الأرض، وطريقة للعيش بصفاء ذهني، يكتسبها الفرد من خلال تطوير وإغناء ثقافته الشخصية، العقلية والروحانية والنفسية معا؛ وممارسة موازية لها، ويمكن وصفها بالزهد والعيش ببساطة دون إستهلاك مفرط؛ والتصرف مع الناس بالفطرة و بصورة قلبية، أو مايدعى (Living by Intuition) وفق ما يمليه القلب، أو ألشراق الروحاني لدى المتصوفة، وليس وفق االمنطق المصلحي او البراغماتي، مثلما تراه عند المتدينين خصوصا. وهي كذلك مقابلة الناس بأبتسامة متفائلة ومتسامحة، و مهما حدث؛ وحب التداهن مع الطبيعة والتواجد معها ,والأعتناء بالبيئة ، وتكييف الذات للعيش بالكفاء، والتوافق بين الغرائز والسلوك ، فهي حالة سلام داخلي للفرد مع نفسه وتوازن بين النفس والروح والعقل للعيش بتصالحهما وليس بصراعهما؛ وكل ذلك يجري بخيار الفرد دون عقاب او ثواب او تجاهر أجتماعي؛ فهي علاقة إغناء داخلي للفرد، بينه وبين نفسه فقط، و هي نفسها علاقة بينه وبين المجتمع، ومع الله ايضا ، دون رقيب أو توعد أو منكر أونكير كما هي بدون وعود بالمكافئة أو العقاب ، فهي ممارسة عقلية والعقل من صنع الله وأعظم هبة منه للأنسان.

أن مايساعد نمو الروحانية الفردانية في العالم المتحضر اليوم هو سيادة القوانين والعلم والمعرفة في تنظيم الحياة وأمور المجتمع، الذي أصبح عقلانيا ،اي علمانيا ،يؤمن بالعلم والعقل والتسامح. ومع الأزدهار الأقتصادي ، الذي توفر نتيجة للسير وفق العقل والمعرفة والعلم لتطوير الأعمال والأنتاج؛ فالأنسان أتيحت له الفرصة أن ينصرف لتطوير روحانياته مطمئنا أن هناك قانونا يحميه، ومستشفى توفر له علاج جيد ، ومؤسسات حكومية تقدم له الخدمات، ودولة تحميه من الكوارث الطبيعية وتحافظ على بيته وعلى بيئته، وتعتني به عند الشيخوخة.

وبالمقابل؛ يبدو إن مشكلة الأنسان المتدين تكمن في أعتقاده إن القيام بالطقوس والألتزام الصارم بتفاصيل التعاليم الدينية في حياته سيضمن له مكافأة ربانية، إن لم تكن دنيوية ،فهو ضامن لها في الأخرة . ولو سألت ،على سبيل المثال، متدينا: هل الصلاة ألتي يقوم بها هي للرب أم هي مفيدة لجسمه وعقله؟ فيأتيك جوابه على الأغلب بأنه بقوم بها لأنها فرض ديني وواجب رباني، ويردد بعضهم مافتأ يردده رجال الدين عليه : فإن لم تقبل فلن يقبل منه سواها.

ولو سألت روحانيا رأيته يصلي نفس السؤال لأجابك ربما بأنه يعشق الصلاة لأنها تريحه نفسيا وعقليا.

والواقع أن ملايين الناس اليوم يمارسون طقوسا مشابهة للصلاة مثل التماهي الروحاني أو مايدعى Meditation حيث يجلسون ربما ساعة أو ساعتين دون حراك في إجازة للعقل وإطلاقة فيض للقلب ومتعة للروح. وشتان بين المتدين الذي يعتقد أن أله بحاجة لصلاة الأنسان، و فرضها عليه فرضا ، وبين روحاني يعي أن الصلاة هي لأغناء الذات نفسها وليست منَة منه على الله ليكافئه عليها ،بل هي هبة من الله ليريح بها جسمه وعقله معا.

أن الروحانية موجودة في الأنسان بخلقه وطبعه وقيمه وتنمو في مجتمع عادل ومزدهر. فالسارق للخبز مثلا، ليس بالضرورة عديم الضمير، بل لأنه جائع .و يوجد الكثير من البشر من يمارس الأعمال الموبقة ثم يذهب للصلاة طمعا بالغفران ولأيداع صورة عند الناس انه تقي بار . والواقع ان الروحانية تبقى حاجة للأنسان حتى ولو تمكن من ايجاد تفسير علمي لما حوله أو حتى عند السيطرة على الكوارث الطبيعة، فهي جزء هام من حياة ألأنسان، كونها مجبولة فيه وما عليه الأ تطويرها لتضفي عليه غنى وسعادة وارتياح داخلي . و الكثير من المتدينين لايعي ذلك، فهو ربما بعد طقس روحاني ، مثل الصلاة، التي يعتبرها واجبا، ربما ينصرف لممارسة مصلحة له على حساب الأخر، أخيه الأنسان، خصوصا إذا أطمأن أن الله سيغفر له ذلك، بزيارة لمكة ، أو أحد القديسين، كما يخبره رجال الدين، أو وجد نصا دينيا قابلا للتؤويل يجاري مصلحته -فالمهم لديه أنه يقوم بعباداته التي فرضها الدين عليه، وأما نقاء الأعمال التي يقوم بها فهي أمر اخر ، متروك لغفران الله فيما بعد وبكثرة الصلاة والتعبد يمكن تجاوزه. عكسه الروحاني، فهو لا ينتظر غفرانا ولا ثوابا بل يقوم بما تمليه عليه روحانيته المتجانسة مع عقله ومع تعاليم الرب، فهو بطبعه يشعر الهامها بالصدق والتجانس والتسامح والبشاشة مع الناس وصدق التعامل، فهي تصبح ثقافة مغروزة في ضميره وقلبه وعقله ؛ والقران مثلا يقول «ونفخنا فيه من روحنا» أي روح الله –والسوال الذي يطرح نفسه هنا : ايهما أقرب الى الله الروحاني أم المتدين ؟ ودون شك إنه الروحاني، لأنه يمارس مانفخ الله في روحه دون قيد ولاشرط ولا طلبا للنجاة ولا طمعا في الجنة ، ولا خوفا من عقاب ولالف ولا دوران، خصوصا مع الخالق الأعظم.

2. التصوف والروحانية في الأسلام

لم يظهر التصوف في الأسلام كحركة أنعزالية لغرض التفرغ للتعبد الألهي ، كما هو شائع، أو كما يريد أن يصنفه بعض المؤرخين . فهو ممارسة روحانية وعقلية فلسفية بان واحد؛ ولو كان الأمر غيرذلك لأمكن أعتبار المتصوفة رهبانا، دون أن تكون لمدرستهم الروحانية أي محتوى فلسفيا أومنحى إجتماعيا. ولوكان الحلاج راهبا متصوفا فقط لكان قد نجا من شنقه على الصليب في بغداد (عام 858م -309 هج) على يد المقتدر بالله؛ وكذلك ما تمَ صلب المسيح لوأكتفى بطقوسه الروحانية دون محتوىً أجتماعيا ؛ فهما لم يقتلا لأنهم كانوا رهبانا أو روحانيين أو أنبياء؛ بل لأنهم يحملون فكرا يشكل خطراعلى التقاليد الدينية والأجتماعية والسلطوية السائدة.

لنتصور التحدي الذي مثله الحلاج لسلطة ألمقتدر بالله، أو لغيره من أمراء المؤمنين ذلك الوقت؛ فلو سألت فرضا الناس، وقتذاك في بغداد، من هو الأقرب الى لله الحلاج أم المقتدر؟ ومن منهما الأجدر بلقب أمير المؤمنين؟ فعلى الأغلب سيجيب معظم الناس إنه الحلاج، وهنا الخطر فهو يحمل في مخيلة المقتدر ووزيره ومفتيه الديني حامد بن العباس، صورة لعلي أبن ابي طالب لزهده وروحانيته؛ وعليه فهو تحد واضح لأمير المؤمنين الغارق بالجواري والترف السلطوي، وإلا لترك الحلاج يسطر أشعاره في العشق الألهي .

ربما يمثل المتصوفة الجانب الروحاني المشرق ، وربما الوحيد في الأسلام، مثلما مثلت المعتزلة الجانب العقلي فيه ، وعداهما يصعب تصنيف الفرق والأتجاهات العديدة في الأسلام، حيث تعددت ألأجتهادات فيه بقدر تعدد فرقه السياسية الحاكمة أو الطامعة بالحكم أو المعارضة؛ فالكل يدعي الأسلام ، والكل يضع السلطة والنفوذ نصب عينيه؛ ومن فاز بأحداها فاز بالأخرى. وهنا برز المتصوفة كحركة روحانية تستكشف الأله الروحاني الملهم ، وليس السلطوي، وتعمقوا بمفاهيمه الروحانية و الجمالية ،وتجلياتها سواء في جمال الطبيعية أوجمال الكلمة أوجمال العشق الوجداني، والحب الأنساني والروحاني، وهي جميعها من أشتقاقات العشق والجمال والألهام الألهي والذي منه يغدق المتصوفة مايلزمهم كالسابح في فضاء لا نهاية له للتمتع بالحياة ،والبحث عن الحكمة ولأستكشاف الجمال الألهي وللتسلق الى درجات أعلى على سلَم الأعالي لفهم ووعي أعمق للذات نفسها عند التقرب أكثر في فهم الروحانية الألهية وتجلياتها وفقا لما جاء في القرأن « ونريد أن نهدينكم إلى سبيلنا» . ولعل الروحانيون اينما وجدوا في العالم اليوم هم الأقرب للمتصوفة منحى وسلوكا.

وبرز في القرن الثالث عشر جدال وسجال بين المتصوفة والفلاسفة ، مثل الذي حصل بين الغزالي في الشام وفيلسوف الأندلس أبن رشد ولخصاه في كتابيهما «تهافت الفلسفة» و «تهافت التهافت» وهو ما يذكرنا بما جرى بداية القرن 20 من سجال حاد بين من يعطي الأولوية للعلم أو من يرفض أطلاقيته ويضع للروح الكفة العليا دون أنكار الأخر ،وكأنما عادت موضوعات أبن عربي والغزالي وأبن رشد الى القرن العشرين –والواقع أن الحضارة اليوم قد أثبتت أن للعلم والعقل مكانه الأول ببناء الدول والمجتمعات، وهوبدوره يسهل نموالروحانيات عند الأفراد لتشكل الكفة الموازية للبراغماتية العقلية التي ستركز على المصالح لو تركت لشأنها دون موازنة روحانية تجمع الحكمة والغايات العليا للحياة والوجود الأنساني. فالعلمانية أداة لبناء وتطوير الدول والمجتمعات ،

وتطويرالروحانية للأفراد نتيجة لهذه المجتمعات القائمة على العقل والعلم ، فالروحانية والعقل سيتواجدان سوية وفق تناغم وسلام داخلي يعيشه الأنسان ويضحى ثقافة عامة في المجتمع.

3. نمو الروحانية الجديدة في الغرب العلماني

تنموالروحانية العقلية في الغرب بأضطراد، وهي ليست من جذور دينية، بل ذات أبعاد ثقافية وعقلية، وحتى من ظهر بملابس البوذيين أو الهندوس أو الكريشنا أو مارس التماهي الروحي «Meditation» أوأنضم الى جماعة صوفية ، فهذا لا يعني إنه قد أصبح متدينا منهم؛ إنما يقوم، ومن خلال عقله، برحلة استكشافية في عالم الروحانيات لأغناء الذات والوصول الى حالة من التجانس والتصالح والتناغم بين العقل والروح « Living in harmony of mind and spirit». وخير دليل على أنتشار الروحانية الواسع بين الناس في العالم المتحضر اليوم ، أن عدد الذين يزورن يوميا مراكز ممارسة تمارين اليوغا « Youga» ربما يزيد بمئات اضعاف أولئك الذين يزورون الكنائس والمساجد ودور العبادة الأخرى . وتكفي الأشارة أن عدد الكتب التي بيعت لمؤلف روحاني مثل أوشو « Osho» قد فاق 100 مليون كتاب خلال أقل من 20 عاما الماضية ، وهو رقم ربما يفوق كل ماباعته مكتبات الكتب المقدسة للديانات التوحيدية الثلاث مجتمعة . ولا شك أن هؤلاء القراء لم يجدوا في الكتب المقدسة ما يشفي غليلهم للنمو الروحاني الذي هم بحاجة اليه لأغناء الذات وللوصول الى حالة التوازن والتناغم بين العقل والروح. وهناك إحصائيات تشير أن فقط 18% من العوائل الأمريكية اليوم تذهب للكنيسة يوم الأحد، ضاربة عرض الحائط تقليدا أمريكيا عريقا حيث أن عددهم في الخمسينات كان يتجاوز 58% . وعندما سؤالهم عن سبب عزوفهم عن زيارة الكنائس ، أتى على رأس الأجابات «إنهم لايريدون التواجد وسط من يعتبر نفسه خيرا منهم ، اومراقبا عليهم أويعتبر نفسه الأقرب الى لله منهم»؛ وكان السبب الثاني من أعتبر الدين «كأنما خدمة الزامية كالخدمة العسكرية لممارسة طقوسهم الروحانية التي يستطيعون القيام بها بممارسة ذاتية ، أو بسفرة عائلية الى جبل أو بحيرة أو غابة قريبة والتمتع بالجمال الرباني والروحاني من خلال الطبيعة» .

والملفت للنظر أنه ومنذ منتصف السبعينات نمت حركات الخضر وكونت أحزابا كبيرة كما في المانيا ودول أوروبا الشمالية ونمت حركات الحفاظ على البيئة وصارت تفرض على الحكومات وزنها الأجتماعي الكبير بالحفاظ على الأرض والنبات ورعاية الحيوان والأنسان، وهذه جميعا حركات يمكن تصنيفها روحانية بشكل من الأشكال ‘ فهي قامت ونمت بعيدا عن الأديان والكهنوت ورجال الدين، وهي الأقرب لله لأنها تؤدي واجب الأمانة له بالحفاظ على الأرض المؤتمنة من الله لدى الأنسان كما ورد في قصة الخليقة السومرية وكلك في التوراة* و في القرآن**. في حين تسمع يوميا رجال الدين والمتدينين يتحدثون عن الفناء والعقاب وتدمير الأرض عقابا للبشر، مثلما روي لهم في قصة الطوفان. والعقل يدلنا ان الحكمة الربانية ابعد ماتكون عن العدمية، اي ان الله يخلق ثم ليدمر ، بل ليديم ماخلقه، ويحافظ على من خلقه .

==========

* أنظر كتاب فالح مهدي « البحث عن جذور الأله الواحد» بيروت 2014.

** أنظر بهذا الصدد البحث القيم للسيد محمد باقر الصدر بعنوان « وراثة الأرض وخلافة الأنبياء» المنشور في سبعينيات القرن الماضي . والغريب في الأمر انه في حين أن القرآن ينص على أئتمان الأرض للأنسان؛ لكننا لم نسمع يوما أحدا من رجال الدين قال لمستمعيه بأن أول الأيمان سيكون عندها هو الحفاظ على أمانة الله، اي الحفاظ على الأرض وما عليها من أنسان ونبات وحيوان وأنهر، بل تجد العكس أن الكثير من رجال الدين ينظر بازدراء للكلب والحمار وغيرها من المخلوقات بل ويزدري حتى المرأة شريكته في الحياة والمصير.

5. قراءة تقييمية للروحانية والتدين

بتطور العلم والمعرفة والعقلانية تطورت الروحانية بصورة موازية لهما، ليمارس من خلالها الأنسان الألهام الألهي المغروس فيه في خلقه. وحصل هذا التطور كنتيجة لأطلاق الطاقات العقلية للأنسان وتحريرها من سوط التكلس الديني الذي وضع طقوس العبادات فوق الحكمة من ممارستها، وحتى فوق الألهام الألهي الذي نفخ الله منه (أي من روحه) في روح الأنسان. وقد وعى الناس هذه الحقيقة اليوم في العالم المتحضرقبل غيرهم من العالم الأسلامي ،اوفي بلدان فقيرة مثل أمريكا اللاتينية ، كون العلم والمعرفة قد أودت لبناء مجتمعات مزدهرة إقتصاديا وثقافيا، واقامت دولا تحمي الأنسان وتحافظ على بيئته، وحكومات تقام لتقديم الخدمات له لا لقمعه. أن كل ذلك تحقق بفضل العقل والعلم ، وليس بالدين والتدين. وقد خلق العقل والمعرفة البيئة المناسبة للأفراد لتنمية الروحانية الشخصية لتحل محل الشخصية الدينية ، لأن الأخيرة عجزت عن تلبية مطالب الأنسان الروحية وركزت على العبادات كغايات في حد ذاتها ، وعلى أساسها يتم العقاب والثواب (أي خاطبت غرائز الأنسان، لاعقله)، في حين أن الروحانية العقلانية أطلقت العنان للعقل لأستكشاف الألهام الألهي في الأنسان للتمتع في الحياة التي وهبه الله اياها، وليس بالأخرة، بابداع سواء بالأدب أو الفن أو بالتقرب من الطبيعة والتمتع بها أو في الموسيقى أو من خلال الأغناء الداخلي للأنسان للوصول الى حالة التجانس والتناغم بين العقل والروح، او كما يؤمن المتصوفة : للتواجد الأقرب الى الله.

الباب الخامس
العلمانية هي الحل

1. العلمانية منهج لتطوير المجتمع وبناء حضارة مزدهرة

تشكل العلمانية اليوم، اي فصل الدين عن الدولة، أحد أهم ركائز التطور الحضاري للمجتمعات التي اخذت بها ابتداء من القرن الثامن عشر ، او تحديدا منذ انبثاق الثورة الفرنسية عام 1789 م ، بمبادئها المعروفة « الحرية ، الأخاء، المساواة» . وقد نجحت فرنسا في وضع وأعلان دستور اول دولة تختفي فيه جميع سلطات الكنيسة من التأثير في الحياة والدولة والمجتمع ، وينص بصراحة بفصل الدين عن الدولة في كل مناحي نشاط الدولة وحياة الناس بدء من التعليم والى تنظيم معاملات المواطنين وأحوالهم الشخصية والى الحريات العامة والفردية بما فيها حرية التعبير عن الرأي والنشر والمعتقد. وجاء دستور الولايات المتحدة بنفس الفترة تقريبا ،وتحت تأثير نفس مبادئ الجمهورية الفرنسية ودستورها ومفكريها، وأعاد فيه نفس المبادئ التي تمنح الفرد حصانة وحقوقا كونه مواطنا وليس رعية لملك او كنيسة او مذهب ديني او أصل قومي ، فالمواطن (وليس الجماعة او القومية او العرق او الدين) هو الشخصية المعنوية والقانونية التي تسهر الدولة على خدماته وحمايته وايجاد سبل تطوره .

بذرت البذرات الأولى للعلمانية قرابة 200 عام قبل الثورة الفرنسية واستمرت طبختها الفكرية على نار هادئة حتى بلوغها سن الرشد ، شارك فيها الفلاسفة والفنانين، الشعراء ورجال القانون ، التجار والحرفيين ، المثقفين والأميين ، الرجال والنساء ، في صراع مع الملكية المطلقة المستبدة على الناس،من جهة، وسلطة الكنيسة على الفكر والمعرفة ،من جهة أخرى. ثاروا أجيالا متعاقبة من أجل حقوق الفرد والمواطنة والعدل والمساواة والحرية والعيش الكريم . وترأسهم مفكرون عظام كان جوهر أعمالهم تمجيد العقل وألأنسان والحياة، وجميعها منبوذة في الكتب ألأبراهيمية المقدسة ، فالعقل شيطان كامن في الأنسان، والأنسان ذليل لأهواءه، والحياة مرحلة زائفة وزائلة ، أنها محطة ترانزيت للحساب، فهناك أما الخلود (الحياة الحقيقية) او الى الجحيم . وها هو فيلسوف التنوير العقلي ديكارت (1596-1650) يضع الصيغة الأساس : انا افكر فأنا كائن وموجود، اي ربط وجود الفرد والأعتراف بكيانه بقابليته على أستخدام عقله، وليس ايمانه كما يدعي رجال الدين . تلاه باراخ سبينوزا (1632-1677) الذي وحد العقل والطبيعة واثبت وحدة العقل والأخلاق فالعقل العارف الصالح يولد أخلاق فاضلة وليس الخوف والرعب من العقاب الألهي سيولد الأخلاق والمجتمع الفاضل. أي بمعنى اخر، اننا نستطيع معرفة الأله والسير وفق روحانيته بأستخدلم عقولنا (مثله قال ابن الراوندي [1] بخمسة قرون واسهب به أبن رشد [2] بثلاثمائة عام) ، ولاتتم المعرفة بالله فقط من خلال الخيال التصويري لقصص الأنتقام والعقاب والثواب والجنة والجحيم الواردة في الكتب المقدسة، فالعقل الواعي الفاضل بالمعرفة هو اداة لممارسة الفضيلة نفسها والتطور الأنساني وفق مايريده الله من البشر، وليس الخوف من الحرق في جهنم او من خلال اقامة الطقوس له.
تلا هؤلاء الفلاسفة الكبار ، عمالقة في الفكر السياسي والأجتماعي : أولهما جان جاك روسو (1712-1778)الذي صاغ شكل الدولة العلمانية بشكل عقد أجتماعي بين المواطنين من جهة، والسلطة هي الجهة الأخرى، بحيث ان من حق المواطنين سحب البساط من السلطة أن هي اخلت بواجباتها الأجتماعية المتعاقد عليها ، فالسلطة لاتملك حق الحكم إن خالفت او تخلفت عن الألتزام بعقد يضمن حرية المواطن وامنه وكرامته وعمله وتعليمه ، وبالتالي رفع روسو البساط من انظمة الحكم المطلقة المتوارثة من القرون الوسطى لتستبدل بسلطات تخدم المواطنين، لا لتحكمهم .

==========

(1) أنظر عبد الرحمن البدوي «تاريخ الألحاد في الأسلام» طبعة دار مصر 1948 .
(2) انظر كتاب ابن رشد «تهافت التهافت» في جوابه على كتيب الغزالي «تهافت الفلسفة».

وفي نفس الفترة تقريبا ، اي أوسط القرن الثامن عشر، أتت طروحات مونتسيكيو(1689-1755) بنموذج متمم للدولة العلمانية الحديثة يتضمن فصل السلطات الثلاثة بحيث لاتوضع بيد واحدة سلطة التشريع والقضاء والتنفيذ كما في الأنظمة الملكية المطلقة والديكتاتوريات المستبدة .وبنفس الفترة برزت أعمال فولتير (1694- 1778) المكرسة للدفاع عن الحريات المدنية ،وخاصة حرية العقيدة والمساواة وكرامة الإنسان.ان جمع طروحات روسو ومونتسيكيو وفولتير مع بعض هو في واقع الحال قد كون شكل واركان الدول العلمانية المعاصرة التي نرى إنجازاتها الكبيرة اليوم في مجال الأستقرار الأجتماعي والتطور الحضاري والبيئي والصحي والعلمي والتعليمي والعناية بالطفل والأسرة، بل وحتى في المجال الروحاني، فهي جميعها بازدهار مادام العقل والمنطق والعلم والقانون والتنظيم وصيانة الحريات والحقوق تحكم هذه المجتمعات .

2. قراءة في علاقة العلمانية و الليبرالية

ترعرعت العلمانية في اوروبا خلال القرن التاسع عشر وما ان حل القرن العشرين حتى أضحت كل دول القارة تقريبا تاخذ بالمنهج العلماني في بناء دولها وتطوير مؤسساتها ومجتمعاتها . الأ أن بروز التيارات الأيديولوجية في النصف الأول من القرن العشرين (الماركسية في روسيا السوفياتية ، القومية في المانيا النازية والفاشية القومية في أيطاليا وفرنسا وغيرهما) قد أظهر انه رغم ان علمانية هذه الدول الأيديولوجية، ولكنها أضحت ديكتاتوريات شرسة تمارس الحروب والتوسع والأستعمار والتمييز بين مواطنيها سواء على اساس طبقي او عرقي أو ديني. وأواسط القرن العشرين صار واضحا أن العلمانية لوحدها غير كافية لبناء مجتمعات مدنية تقوم على نفي التمييز بين المواطنين وتحترم جريات الفرد العامة والخاصة. فكل من ستالين وهتلر وموسوليني واتاتورك وصدام حسين حكموا دولا علمانية (اي تقوم على فصل الدين عن الدولة) ، ولكنهم جميعا قوضوا وصادروا الحريات العامة والخاصة ،و مارسوا الأرهاب ضد من لايصطف مع ايديولوجياتهم ، واقاموا ديكتاتوريات شرسة تعتمد العنف والتنكيل وصبغ المجتمع بلون واحد.

وهنا برزت الليبرالية ، اي الفكر المضاد للأيديوولجيا او التعصب الفكري او العرقي او الديني، كمنقذ للعلمانية وصنو لها ، فهي فلسفة ومنهج يضع مصالح وحريات الفرد والمواطن فوق السلطة ومن يراسها ، فهي قد قلبت الطاولة على القادة المؤدلجين ومنعتهم من اقامة ديكتتوريات لهم في دول علمانية . فالليبرالية قد اعادت التوازن وأكملت ماتنقصه العلمانية وأضحت معادلة الدول المتحضرة اليوم تقوم على العلمانية الليبرالية اي فصل الدين عن الدولة (العلمانية) مع فصل الأيديولوجيا عن الدولة ومؤسساتها واحترام حقوق وحريات المواطن العامة والخاصة ومنع التمييز بين المواطنين على اساس فكري او عقائدي او ديني او قومي او بين الرجل والمراة ، ووضع مصلحة الفرد فوق السلطة (الليبرالية) .

3. قراءة في علمانية المجتمع والفرد

المجتمع العلماني هو نتاج للدولة العلمانية فتسود فيه ثقافة منع التمييز واحترام التنوع الثقافي والعرقي والديني واحترام حرية الراي والعقيدة والنشر وذلك ضمن قوانين تضعها السلطة العلمانية ويسير عليها المجتمع وتصبح جزء من ثقافته وحياته وتقاليده اليومية . فبدون دولة وسلطة علمانية لايمكن الحديث عن مجتمع علماني فهو نتيجة وليس مقدمات لها.

الأنسان العلماني هو من يأخذ بمبدأ العقل والعلم في فهم الحياة والطبيعة ، ومن يحترم حريات الأخرين ويعتبرها جزء من حريته، كما لايميز بين البشر بسبب لونهم او عرقهم ، بل يبحث عما في عقولهم وثقافتهم ليغني نفسه وثقافته ، ويؤمن بتاخي البشر وتناغم الحضارات واكتشاف جمالياتها دون التفريط بثقافته وثقافة شعبه ، فهو متفتح على العالم ويبحث عن الجميل والجمال في حضارة الأنسان. والفرد العلماني يمكن ان يكون مؤمنا او روحانيا او غير منتمي او حتى ملحدا ، فهذا شانه الخاص .و يحاول رجال الدين تصنيف العلمانيين أنهم ملحدين (اي أنهم ينكرون وجود الله الخالق) وهو امر ينم عن حقد على العقل وعلى من سار عليه من الناس ، ولو صح كلامهم لكان الأمام علي ابن ابي طالب ملحدا , فهو صاحب المدرستين العقلانية والروحانية في الأسلام ، العقلانية مارسها الأمام في كل قول قاله ، والروحانية هو ماواجه به أثراء قريش بنبذه الترف والقصور وزهو السلطة ، وظل في جزيته الصوفية ينام فيها على التراب لأخر يوم من حياته، فهو أمام العلمانيين والروحانيين بان واحد.

المراجع

مالذي يمكن قرائته للأستمتاع أوللتعمق أكثر بمؤلفات تغني موضوع هذا الكتاب

1. ارنولد توينبي ، دراسة للتاريخ ، ترجمة طه باقر ، بغداد 1978.
2. ول ديورانت ، قصة الحضارة ، الكتاب الأول- تراثنا الشرقي، بيروت 1975.
3. سيد محمود القمني ، قصة الخلق ، المركز المصري لبحوث الحضارة،1999.
4. سيد محمود القمني، النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة: صدر 1999.
5. سيد محمود القمني ، النبي إبراهيم والتاريخ المجهول: صدر 1996.
6. سيد محمود القمني ، حروب دولة الرسول: صدر 1996
7. فراس السواح، مغامرة العقل الأولى – دراسة في الأسطورة، سورية وبلاد الرافدين، 1999
8. فراس السواح، الوجه الآخر للمسيح – مقدمة في الغنوصية المسيحية، 2001
9. فراس السواح، جلجامش – ملحمة الرافدين الخالدة ، 1996
10. فراس السواح، لغز عشتار - الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة ، 1998
11. هنري بولاد، ألإنسان والكون والتطور بين العلم والدين، دار المشرق، الطبعة الرابعة، بيروت 2008.
12. د. عبد الرحمن بدوي، شطحات الصوفية، وكالة المطبوعات، الكويت، الطعبة الثانية، 1976م.
13. عبد الرحمن بدوي، من تاريخ الألحاد في الأسلام ، القاهرة ، 1949.
14. خليل عبد الكريم ، النص المؤسس ومجتمعه، القاهرة، 2002.
15. خليل عبد الكريم ، فترة التكوين في حياة الصادق الأمين ، القاهرة، 2001.
16. خليل عبد الكريم ، شدوا الربابة في أحوال الصحابة، القاهرة ،2000
17. خليل عبد الكريم، الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، القاهرة، 1997.
18. خليل عبد الكريم، مجتمع يثرب، القاهرة، 1996.
19. خليل عبد الكريم، ، االإسلام بين الدولة الدينية والمدنية، القاهرة، 1995.
20. محمد محمود ، نبوة محمد – التاريخ والصناعة، لندن، 2013 .
21. خزعل الماجدي، علم الأديان ، الرباط ، 2016
22. هادي العلوي ، شخصيات غير قلقة في الأسلام، دار المدى ،بغداد 2010.
23. هادي العلوي ، خلاصات في السياسة والفكر السياسي في الأسلام، بغداد 2011.
24. علي عزت بيجوفيتش / الأسلام بين الشرق والغرب، دار الشروق، القاهرة ،ط11 ،2017
25. شريعة حمورابي. ترجمة محمود الأمين. شركة دار الوراق للنشر المحدودة (الطبعة الأولى: 2007)
26. فالح مهدي « البحث عن جذور الأله الواحد» بيروت 2014.

المراجع الأجنبية

مالذي يمكن قرائته للأستمتاع أوللتعمق أكثر بمؤلفات تغني موضوع هذا الكتاب

1. Durant, Will: *The Foundations of Civilisation*. Vol.1, *Our Oriental Heritage*. New York: Simon & Schuster New York, 1936.
2. Durant, Will: *The Lessons of History*. . New York: Simon & Schuster, 1968.
3. Barbour, Ian G. : Religion and Science: Historical and Contemporary Issues (first revised ed.). HarperSanFrancisco, 1997.
4. Toynbee, Arnold : *A Study of History ,Vol. 1.* Introduction; The Geneses of Civilizations, Oxford University Press 1934.
5. *Toynbee, Arnold: An Historian's Approach to Religion* (Oxford University Press 1956).
6. Coote, R, and Coote , Mary : Power, Politics, and the making of the Bible, Minneapolis, Fortress press, 1990.
7. Torrey, Charles: The Jewish Foundation of Islam, N.Y. , 1933.
8. Dever, William G. (2002). *What Did the Biblical Writers Know and When Did They Know It?*. Wm. B. Eerdmans Publishing Company. ISBN 0-8028-2126-X
9. Van Voorst, Robert E (2000). *Jesus Outside the New Testament: An Introduction to the Ancient Evidence*. Eerdmans Publishing
10. B. Ehrman, 2011 *Forged : writing in the name of God* ISBN 978-0-06-207863-6.
11. Nash, Elizabeth : Seville, Cordoba, and Granada: A Cultural History, Oxford University Press, ISBN 0-19-518203-0, 2005.
12. John L. Esposito. *The Oxford History of Islam*. Oxford University Press. ISBN 0195107993, 1978
13. Henry Corbin *History of Islamic Philosophy*. London: Keagan Paul International, 1993.
14. Wells, H. G. (Herbert George), The outline of history : being a plain history of life and mankind, 1920
15. Montgomery Watt ،*Muhammad: prophet and statesman*. Oxford University Press, 1974. .ISBN 978-0-19-881078-0.
16. Gabriel ،Richard, *Muhammad, Islam's first general* ،University of Oklahoma Press،2008 ،ISBN 978-0-8061-3860-2